الفصل الخامس

البوذا

قصة مولده :

خلال بضع سنوات من حياة «مهافيرا» ، ولد فى سفح الهملايا ، على حدود أوذ Oudh ونيبال ، جوتاما بوذا Gotama Buddha ، الذى تركت حياته وشخصيته انطباعاً أكثر بقاءً على العالم الشرق أكثر من أى شخص آخر . وكان «جوتاما بوذا» واحداً من كبار المجددين للفكر ، الذى ظلت تحيط بحياته الأسطورة والشعر حتى إنه ليبدو ، بعد مضى أكثر من ألفى سنة ، أنه كان أكثر من شخص فانٍ . ويبدو ، فى الوقت نفسه ، أن هذه الشخصية السامية لم تقم بالوعظ والإرشاد فحسب ، بل وهبت ، ولم يسبقها فى ذلك أحد من قبل تقريباً ، صفات لا شك أنها تبعث على التهكم بصورة معينة ، إن كنا ندعوها إنسانية : صفات الرقة والشفقة والتسامح والتواضع . وعلى شاكلة معظم الأناجيل الأخرى ذات العلاقة المقدسة ، كان مولده موضع أسطورة محكمة ، وفى اعتقادنا أسطورة معقدة بصورة لا داعى لها . وكما هى الحال مع كل الأنبياء ، كانت بعثته نتيجة ما هو مفروض أن يكون إلهاماً مقدساً ، وكان ينظر إليه تلاميذه ، على أنه فقط واحد من بين عدد من المنقذين الآخرين للبشرية ، أو البوذا . وأخيراً ومن هذه الوجهة كان هناك تشابه بينه وبين مهافيرا فقط فى أنه بشَّر بعقيدة لم يكن فيها – اسمياً – مكان لإله . ومن الصعب أن نعلل أن يظهر على وجه الأرض شخص مثل «جوتاما بوذا» مثلما يصعب تصور ما يمكن أن يملأ الفراغ التاريخى لو أنه ، بدلاً من هجره للعالم ، تقبل المنصب الرفيع الذى أعده له ميراثه .

كان «جوتاما بوذا» ، على شاكلة «مهافيرا» ، رجلاً ذا أصل رفيع ، كما كان أيضاً ، عضواً فى طائفة كشاتريا Kshatriya ولكنه كان أكثر من ذلك ، فلقد كان أبوه «سوذودانا Suddhodana » ملكاً وحاكماً على مدينة كابيلافاستو Kapilavastu – وهى مدينة على بعد مائة ميل شمال بنارس ، وكان فرداً من أفراد قبيلة اشتهرت باستقلالها وقوتها وهى قبيلة شاكيا Shakya . ومن العائلة الفريدة التى كان ينتمى إليها سوذودانا ، اشتهر ابنه سذارثا

obeikandl.com

Siddhartha ، الذى لقب بالبوذا فيما بعد ، أما عن التاريخ الدقيق لمولد الجوتاما فهو مثار خلاف ، وإن كان معظم العلماء يعتقدون اليوم أنه كان سنة ٥٦٣ ق . م . أما عن كيف كانت ولادته فهو موضوع كثير من الأساطير غير العادية .

وفى كتابتنا لحياة البوذا نجد أنه من المستحيل ، حتى لو كان هذا أمراً مرغوباً فيه ، حذف هذه الكثرة الأسطورية . وفى الوقت الذى نجد فيه أنه من الصعب تصور بوذى ورع ذى تربية معقولة يؤمن إيماناً صادقاً بقصة حمل أم البوذا بوليدها كما وردت فى أول كتب الـ « جاتاكا Jataka » فقد يكون من الحماقة أن نتجاهل من بين « قصص مولده » الكثيرة ما هو أبعدها عن الصواب . وفى المقام الأول ، من الطريف جداً أن نلاحظ فى قصص قُصد بها أساساً عامة الشعب (مثل الأساطير المصرية) أى نوع من الحقيقة أو الخيال كان يظن أنه أقرب لإثارة الدهشة والرهبة العامة . وفى المقام الثانى ، من المهم إدراك أن مثل هذه القصص التى تميز كل عقيدة عالمية ، كان المقصود بها أن تتقبل فى حالة ليست أقرب إلى التسليم بها منها للتصديق المؤجل وعدم التصديق . والقول بأن هذه الأساطير ترتفع ببساطة إلى مستوى الشعر لا يوحى لذلكَ بأنها زائفة ، فهى ليست أكثر زيفاً من عبارات الإطناب التى يتفوه بها المحب لخليلته . وفى موقف من هذا النوع ، يكون كلا الطرفين فى تآمر لاعتبار أن مثل هذه العبارات وسيلة للتعبير عن ذلك الذى قد يظل بصورة مختلفة غير مقال أو لا يمكن قوله . ونحن نبالغ فى المستوى العقلى للجنس البشرى ، تماماً كتجاوزنا بلا شك فى تقديرنا لكفاءة العقل إذا افترضنا أن العقيدة يمكن أن تدعم فقط على أساس من الواقع . وفى دعوة الشخص العادى إلى الإيمان بما هو فوق الطبيعة ، ينبغى على زعماء العقيدة أن يعودوه على الأفكار التى تكون فيها الطبيعة عرضة للتأجيل المستمر . وإذا كان الفن والشعر هما دين الطبيعة فإن الدين هو شعر ما فوق الطبيعة .

وبعد مولد البوذا بنحو سبعمائة سنة ، دونت لأول مرة الأساطير المختلفة التى تناولت حمل أمه به ومولده . ونحاط علماً فى مقدمة كتب « جاتاكا » أن التاريخ مقسم إلى مراحل كبرى ثلاث تفصل الواحدة منها عن الأخرى بمدد زمنية متفاوتة ، وتجديد الدورة الزمنية تنبئ عنه حادثة يمكن أن تترجم خير ترجمة بعبارة اضطراب أو حرفياً « صخب » Uproar . وأولى هذه الاضطرابات التى حدثت بعد أن صار للعالم وجود لمدة مائة ألف سنة ، أدت إلى التدمير الكامل للعالم بفعل نيران الأرض « تدميراً بلغ مداه سموات البراهما » وثالث وآخر اضطراب ،

قد يكون قيام الملكية العالمية على الأرض ، وبين هذه الاضطرابات التاريخية الكبرى والتى حدثت نحو ألف سنة بعد الطوفان الذى عجل به الاضطراب الأول ، كان الحدث الحقيقى الرئيسى للتاريخ ، أعنى مولد المنقذ العليم بكل الأمور أو البوذا «المبارك Blessed » أو « المتنور Enlightened One » الذى كانت رسالته هى خلاص العالم .

عندما حان الوقت لملائكة العالم الحراس أن يعلنوا عن « مولد البوذا » نحاط علماً بأنه اجتمع «آلهة كافة عشرة الآلاف عالم ، معاً ، فى مكان واحد» ، ولما استقر رأيهم على من سيكون البوذا ، أعلنوا اسمه على الملأ . وبعد إعلان الظروف التى افترض أنه ولد فيها ، وإعلام الآلهة بخليفته ميتريا Maitreya ، مات البوذا على هذا الأساس ، وكان قد حُمل به على الأرض فى رحم الملكة «ماها–مايا Maha- Maya »كبرى زوجتيْ سوذودانا . ثم يدخل التسلسل التاريخى بعد ذلك فى التفاصيل التالية : « فى تلك الأثناء عُقد احتفال منتصف الصيف فى مدينة «كابيلا فاستو» ، وتمتع الكثيرون بالعيد ، وشاركت فيه الملكة «ماها–مايا» ، وامتنعت عن تناول المشروبات الروحية القوية ، وكانت مشرقة الطلعة بما كانت تضعه من أكاليل الغار وما كانت تتضوع به من روائح خـلال الاحتفالات التى دامت لستة أيام سابقة ليوم قمر التمام . وعندما جاء قمر التمام ، استيقظت مبكرة واستحمت فى ماء معطر ووزعت أربعمائة ألف قطعة نقدية فى سخاء عريض ، وتزينت فى زى كامل للاحتفال وأكلت أشهى طعام ، وبعد ذلك أخذت على نفسها العهود الثمانية ، ودخلت غرفتها الملكية المؤثثة أرق تأثيث . وبينما كانت ترقد على المتكأ الملكى ، استغرقت فى النوم وحلمت بالحلم التالى : جاء أربعة ملائكة من الحراس ، ورفعوها وهى على متكئها وذهبوا بها بعيداً إلى جبال الهملايا ، وهناك فى سهل « مانوسيلا Manosila » المرتفع . . . أرقدوها تحت شجرة موالح ضخمة ، ارتفاعها سبعة فراسخ . ووقفوا فى احترام فى جانب واحد . . . ولم يكن بعيداً عنها تل الفضة . وكانت مقامة فوقه دار مذهبة . مدوا فيها متكأً مقدساً رأسه تجاه الشرق وأرقدوها عليه ، ثم اتخذ البوذا المنتظر صورة فيل أبيض رائع المنظر . وأخذ يتجول فى مسافة ليست بعيدة ، على تل الذهب . وبعد هبوطه هذا التل ، صعد تل الفضة ، وفى اقترابه من جهة الشمال قطف زهرة لوتس بيضاء بخرطومه الفضى ، وفى دَقه دقاً مدوياً توجه إلى الدار المذهبة ولف حول متكأ أمه ثلاث مرات وجنبه الأيمن تجاه المتكأ ، ضارباً إياها على جنبها الأيمن ، وبدا يدخل رحمها ، وهكذا حدث الحمل فى الاحتفال بمنتصف الصيف» .

وطبقاً لرواية القصة ، لم تستيقظ الملكة حتى اليوم التالى ، عندما سردت على الفور حلمها على الملك الذى كان همه بطبيعة الحال أن يكتشف مغزاه ، وعليه ، فقد دعا إلى اجتماع ضم أربعاً وستين من أعلم علماء البراهمانيين فى مملكته ، وبعد أن متعهم فى حفل فخم وقدم لهم الهدايا الثمينة ، قص عليهم حلم الملكة ، وطلب منهم تفسيره . وبعد التروى المناسب وصل البراهمانيون إلى نتيجة إجماعية إذ قالوا له : «لا تقلق أيها الملك العظيم . لقد تكوّن جنين فى أحشاء ملكتك ، وهو جنين ذكر وليس أنثى ، سيكون ابناً لك ولوكتب له أن يحيا الحياة الملكية ، فسيصبح حاكماً عالمياً ، ولكن لو أنه ترك الحياة الملكية واعتزل العالم فسيصبح بوذا وَلَطَوى سحب خطيئة وحماقة هذا العالم» .

وعلى الفور صار معروفاً فى السماء أنه حُمل ببوذا على الأرض ، فحدث هرج ضخم ، وقد أحصيت اثنتان وثلاثون ظاهرة ودلالة ، وغمر عشرة الآلاف عَالمَ إشعاع لم يُشاهَد قط من قبل ، وشُفى العجزة والمرضى فجأة ، وخمدت النيران فى كل جحيم فى الكون وصهلت الخيول وطبلت الفيلة بأسلوب عذب على الأذن وعزفت الآلات الموسيقية بدون عازف ، أنغاماً سماوية . واستحال ماء المحيط عذباً . واستطالت زهور اللوتس ، وما إلى ذلك . وبالرغم من أن الملكة كانت فى الخامسة والأربعين من عمرها ، فقد مرت فترة الحمل بصورة تبعث على الرضا التام ، وهى لم تحس بأنها فى صحة جيدة بصورة غير عادية فحسب ، بل ظلت دائماً على علم بوجود البوذا المنتظر فى أحشائها ، «كخيط أبيض من خلال حجر كريم شفاف» . وعندما اقترب موعد الولادة ، استبدت بها رغبة قوية هى أن الطفل ينبغى أن يولد فى بيت أسرتها فى مدينة ديفادادا Devadada. ولما كان يهم الملك أن يحقق كل رغبة من رغباتها ، فقد أصدر أمره بأن يشيد لها طريق عمومى خاص لتمر به ، وحُملت على محفة فاخرة ، وكانت معيتها مؤلفة من ألف من رجال البلاط ووصلت فى الوقت المحدد إلى نقطة فى الطريق تسمى غابة لامبينى Lumbini Grove، خارج بوابات المدينة تماماً . وإذا المشهد ، الذى كان غاية فى الجمال – إذكانت «الغابة الصغيرة كتلة من الأزهار تمتد من الأرض حتى أقصى قمة الفروع» – قد أسرها وأخذ بلبها . فأعربت عن رغبتها فى التخلف هناك . وفى تجولها خلال جمال الغابات ، اقتربت من شجرة موالح ضخمة فى وسط الغابة ، ولما مدت يدها تجاهها مال نحوها غصن من الأغصان ، ولدهشتها ، ما أن لمسته حتى بدأت تحس بآلام الوضع ، ومن ثم ، فقد حدث أنه بينما كانت تمسك بغصن شجرة الموالح ولدت البوذا الصغير

«وكان وضاءً فى نقائه وصفائه كحجر كريم قُذف به على رداء صنع من قماش بنارس Benares» ، لأنه بينما كان يخرج من رحم أمه هبط فى الوقت نفسه أربعة ملائكة من السماء ، فتلقوه على شبكة ذهبية فى حين قامت نافورتا مياه من السماء بمراسيم استحمامه ، ويصوِّر هذا المشهد دائماً وبصورة متكررة فى الفن البوذى . أما عن الملكة نفسها ، فقد توفيت فى اليوم السابع من ولادة ابنها «لأن الرحم الذى حمل البوذا يعد بمثابة حرم ولا يمكن شغله أو استخدامه مرة أخرى» ، ولذا فقد قامت بتربية الصبى خالته : مايا براجاباتى Maya-Prajapati

ولقد رُوى أن البوذا الصغير عندما ولد اتجه بنظره إلى الشرق واستعرض الكون كله كما لو كان منبسطاً أمامه أشبه بـ «ساحة ضخمة مكشوفة» . وعلى شاكلة زارادشت الصغير ، وجه أنظاره فى دقة ورزانة ، إلى كل اتجاه لغرض يبدو أنه كان يريد أن يتأكد هل كان هناك أى فرد فى العالم يمكن أن يكون صنواً له ،ولما لم يجد منافساً له ، خطا سبع خطوات واسعة وأعلن عن نفسه فى صوت نبيل إنه إله الخلق . هذا الطفل يمكن أن تقارن صيحته ، «صيحة النصر» «بالضحكة الصاخبة» التى صدرت عن زارادشت عند ولادته . وتحيطنا الكتب المقدسة علماً عند هذه النقطة أنه فى نفس الوقت الذى ولد فيه البوذا جاءت إلى الوجود شجرة التين الشهيرة التى كان عليها أن تقوم بدور هام جداً فى حياة البوذا .

العلامات الأربع :

رحبت الآلهة والناس بولادة البوذا ترحيبها بحمل أمه له ، على أنه حدث لا مثيل له فى التاريخ : فتغنت جوقة سماوية ، أشبه بتلك التى حيت مولد المسيح ، بمدائح الطفل الصغير . ويسجل التراث البوذى بالمثل ، حادثة مماثلة تماماً لتلك الزيارة التى قام بها الحكماء الثلاثة إلى بيت لحم . لقد اعتاد رجل قديسى المظهر يدعى كلاديفالا Kaladivala، وكان معروفاً حق المعرفة للملك سوذودانا ، أعتاد بعد وجبته اليومية أن يستغرق فى فترة من التأمل العميق . وفى اليوم الذى ولد فيه البوذا ، لاحظ أن الآلهة التى كان على صلة بها ، فى حالة غير عادية من البهجة . وبعد تحريه عن السبب ، علم أن طربهم إنما مردّه إلى حقيقة أن ابناً قد ولد للملك سوذودانا وأنه سيجلس تحت شجرة التين ويصير بوذا وسيكون سبباً فى نشر مبدأ دينى . وعند تلقيه هذه المعلومة ، هرع «كلاديفالا» الذى كان بمثابة «سيمون البوذية

Simeon of Buddhism» ، إلى القصر الملكى وطلب رؤية الطفل . وفى سروره وامتثاله لهذا المطلب ، أمر الملك بأن يرتدى الأمير الصغير أحسن ملابسه وأن يأتوا به . لقد بدا من الملائم أن من الواجب أن يعوِّد الطفل على أن يقدم تبجيله إلى مثل هذا الرجل القديس ؛ ولكن لم يحدث هذا ، إذ لم يكد يُحمل البوذا إلى كلاديفالا حتى غرس قدميه بثبات بين خصلات شعر الناسك المبجل الملبدة ، موضحاً بهذا أنه ليس هناك من أحد على ظهر البسيطة على استعداد لأن يؤدى له فروض الطاعة . وأدرك كلاديفالا أنه كان فى حضرة مخلوق قديس . ولما لاحظ علامات معينة مقدسة على جسد الطفل مثل «عجلة القانون» على قدميه ، أسرع الرجل العجوز وانحنى احتراماً ، فدهش الملك ، إذ لم يشهد قط من قلب قواعد السلوك مثل ذلك القلب الذى يقدِّم فيه رجل قديس فروض الطاعة والولاء إلى طفل حديث الولادة . ولكن عينيه تفتحتا الآن وأسرع ليحذو حذو كالاديفالا .

عندئذ تذكر الملك نبوءة البراهمانيين الذين كان قد استشارهم بالنسبة لحلم الملكة ، لقد سأل كلاديفالا كيف يمكن التحقق مما إذا كان الطفل سيصير حاكماً عالمياً أم بوذا ؟ فَرَداً على ذلك أعلن كلاديفالا أن مصير الطفل فى المستقبل ستحدده أربع علامات : لوكُتب للطفل أن يرى فى الوقت المناسب رجلاً عجوزاً هرماً ، ورجلاً مريضاً ، ورجلاً ميتاً وآخر راهباً ، ففى هذه الحالة سيصير بوذا بكل تأكيد . وفكر الملك . لقد قرر بينه وبين نفسه أنه بدلاً من أن يعتزل ابنه العالم ينبغى أن يصير حاكماً لمملكة عظيمة . لقد كان لديه إحساس بأن هذا الأمير الصغير مقدر له أن يحكم العالم . وبناء على ذلك – ولكى يؤكد أنه يجب ألا يحبط ما رسمه – أمر الملك بوجوب وضع حراس فى كل اتجاه ، مزودين بتعليمات مشددة بألا يسمحوا بدخول أى زائر مشكوك فى أمره ، خاصة بالنسبة للفئات الأربع من الرجال الذين تحدث عنهم كلاديفالا .

عاش الأمير لبضع سنوات عيشة سعيدة ، حياة استهتار فى القصر الملكى . ولقد بدا أن الاحتياطات الدقيقة التى اتخذها أبوه كانت لها فعاليتها . ولم يكن هناك من شىء ينقص الصبى ، ولم تكن هناك من متعة فى حياته الشابة تنقصه ، ولم تكن هناك سحابة حزن لتغيم على حياة كادت أن تكون بهيجة ، حتى حدث أن لاحظ الأمير ، كما تسجل الأسطورة – وكان لا يزال تلميذاً – لاحظ منظر العمال الذين كانوا يعملون فى الحقول كادحين ، منظراً يصور الكدح البشرى ، كما هز مشاعره تحطيم حياة الحشرات بسبب تقليب التربة . وفى التاسعة

عشرة تقرر أن يتزوج الأمير ، وكان اختيار عروس لمثل هذا الأمير أمراً ذا أهمية كبيرة ، ولكن تمشيا مع ما نشئ عليه مُنح فرصة لإصدار حكمه الشخصى . ولقد اختار من بين خمسة آلاف شابة آية فى الجمال ، اختار واحدة تبين أنها ابنة خالتة الأميرة الفاتنة جوباGopa.وخوفاً من أن أميراً قد اعتاد على الرفاهية ، قد تعوزه الرجولة المنتظرة فى زوج حاز قبول عروسه له ، دعاه والد جوبا ليعقد له اختبارات معينة فى القوة والرجولة ، اجتازها دون أية صعوبة ، ويرهن الزواج على أنه زواج سعيد جداً . تنفس الملك سوذودانا تنفساً ينم عن راحة البال . لقد بدا أنه بهذا الرباط الجديد الثابت ، والذى كان يلحق به عدد من المحظيات ، قد ضمن للأمير حياة دنيوية فى المستقبل ورفاهية مقبلة . ولم تكن العلامات المخيفة قد ظهرت بعد ، وكانت الدلالات ، كما كان حالها ، تشير إلى مستقبل أكثر سعادة .

وذات يوم قرر الأمير أن يقوم برحلة خلال ربوع المملكة الشاسعة ، وكانت هذه هى اللحظة التى كانت ترقبها الآلهة ، لأنهم كانوا قد قرروا أنه يجب أن يبدأ من الآن تنور الأمير . فتخفى أحد الآلهة فى صورة رجل عجوز مشلول يهتز جسده ، ووقف على طول الطريق الذى كان من المقرر أن يمر به الأمير ومعه تشونا Chauna ، سائق مركبته الحربية . ولم يكد الأمير يلمح هذه الشخصية الغريبة الباعثة على الشفقة حتى تأثر بهذا المشهد تأثراً يفوق الحد ، إذ لم يشهد قط فى حياته الشابة مثل هذا المشهد . أما تشونا ، الذى شاهد أيضاً هذا المشهد ، فقد فسر له طبيعة كبر السن والهرم . ولأول مرة خبر الأمير إحساساً بالنفور الشديد من الحياة البشرية ، وبالميلاد بصورة خاصة ، الذى لابد أن تُعزى إليه مثل هذه النتيجة المروعة . وفى انصرافه عن كل تفكير فى مزيد من المباهج فى ذلك اليوم ، عاد مسرعاً إلى قصره .

أما الملك . الذى كان فى دهشة من عودة الأمير المبكرة ، فقد تحرى الأمر من سائق مركبة الأمير . وعند سماعه أن الأمير قد قابله رجل عجوز هرم . انتابه إحساس خليط من الخوف والغضب : عاطفتان زادت حدتهما عندما علم إلى أى عمق من اليأس كان تأثر الأمير . وعلى الفور ، صدرت الأوامر بوجوب تعزيز الحرس الموجود حول القصر ، وباتخاذ كل إجراء لمنع أى مشهد يمكن أن يجعل الأمير ينغمس فى أفكار سوداوية . ولكن لسوء الحظ ، بالرغم من أن الملك كان يحيط ابنه بأكبر رعاية ، وكان فى قلق دائم عليه ، فإنه ما إن ظهرت أول علامة منذرة بالسوء حتى أعقبتها فى الوقت المناسب العلامات الثلاث الأخرى . باختصار ، لقد التقى الأمير وسائق مركبته الحربية ، التقيا على التوالى برجل حطمه المرض ، ثم بجثة وأخيراً التقى

براهب . وفى كل مناسبة كان «تشونا» مضطرا لأن يفسر لسيده الشاب طبيعة ومعنى المرض والموت وأهم من ذلك كله ، إنكار الذات Renunciation . وبرغم دراية سائق مركبة الأمير الحربية ، بالاثنين الأولين ، فهو لم يكن يعلم شيئاً عن حياة الرهبان ، لأن مثل هذا اللون من الحياة عليه أن يستمد معناه من مهمة بوذا المنتظر . وبرغم ذلك فإن الآلهة ، الذين اتخذوا صور الأشخاص الأربعة المعنية ، أفهموها لعقل تشونا ليحيط علم الأمير بالمعنى الحقيقى لاعتزال العالم فضلاً عن التوصية بأنها حياة مقدرة أعظم تقدير .

وفى حيرته ، بل أكاد أقول فى يأسه ، لم يكن فى استطاعة الملك أن يفكر فى شىء سوى كيف يمكن استئناف التحايل على الأمير بالمسرات واللهو والمباهج الأخرى . لقد أدرك مؤخراً جداً أن مثل هذه الحيل تساعد فقط على إذكاء عدم رضاء الشاب ، ودنو عالم الألم والمرض والموت قد حول أفكاره تماماً عن المباهج بوجه عام . لقد صارت سعادته الماضية بل حتى سعادته الراهنة ، صارت فجأة بلا معنى ، وتدريجياً بدأ الانجذاب إلى لون مختلف من الحياة يؤكد نفسه : حياة ليست حياة ارتباط بالأشياء والناس ، بل حياة عزلة وتأمل ، قد يصبح فيها المعنى الحقيقى للوجود أكثر وضوحاً .

الاعتكاف العظيم :

وما لبثت أن حلت الكارثة بعد ولادة طفله الأول . ولما كان مخلصاً أيّما إخلاص لزوجته ، فلقد دفعته ولادة ابنهما ، إلى أفكار مريرة ، وكان تعليقه الوحيد عند أول سماعه بالنبأ الذى ملأ المملكة كلها فرحاً وسعادة ، هو أن قال : «لقد وُلد عائق ، لقد وُلد قيد» . أما الملك ، الذى كان يعلق أهمية كبيرة على كل ما كان يتفوه به ابنه ، فقد فكر ملياً فى هذه الملاحظة ، ثم أعلن قائلاً : «فليسمّ حفيدى راهولا Rahula (العائق)» قالها وهو فى حالة نفسية جمعت بين المزاح والتفكر ، وهكذا سمى الطفل . وبرغم ذلك ، فقد أقيمت احتفالات فى المدينة ، ليس فقط للترحيب بمولد الطفل ، بل أيضاً للمناداة بأبيه أسعد البشر . مثل هذا المرح اليسير لم ينجم عنه فقط إلا زيادة انقباض قلب الأمير : فلقد كان مشهد فرقة الراقصات وهن يفترشن الأرض يملؤه على الفور بالاشمئزاز . ولما ضاق ذرعاً بمثل هذه الإغراءات الماجنة ، استغرق فى النوم فى أثناء أدائها ، ثم استيقظ بشعور شخص سمع بأن داره قد شبت فيها حريق . لقد أدرك أنه حان الوقت للقيام بما أسماه «الاعتكاف العظيم» .

أما عن توديع الأمير الصامت لأسرته ، فلقد حوت الـ « جاتاكا » تسجيلاً بسيطاً ومؤثراً . ويمكننا أن ندرك تمام الإدراك كيف أن هذه الحادثة وغيرها من الحوادث فى حياة البوذا قد جاءت لتحتل لنفسها مكاناً مقدساً يستحق الذكر فى أذهان البوذيين التقليديين مثلما احتلت قصة الإنجيل فى أذهان المسيحيين. وليس هناك فى الكتاب المقدس الهندوسى ، اللهم إلا بضع أحداث هامة فى الـ « بهاجافاد – جيتا » ، من مجال للمقارنة فيما يتصل بصراحتها وكياسة التعبير . وحتى لو تجاوزنا عن الاختلافات فى الهدف لتبين لنا أن الوداع الشهير لـ « ياجنافالكيا » و « ميتريى » الوارد فى اليوبانيشادات يلفت نظر القارئ إلى التناقض بينه وبين وداع البوذا ، إذ إن أولهما عقلى بصورة غير معقولة ، فى حين أن ثانيهما شكلى بصورة غير معقولة : ولقد سجلت «الجاتاكا» ما يلى : « والآن بعد أن بعث البوذا المنتظر بـ«تشونا» فى مهمة (ليضع السرج على جواده «كانثاكا Kanthaka» قال لنفسه : «سألقى مجرد نظرة واحدة على ابنى» ونهض من المتكأ الذى كان جالساً عليه وتوجه إلى جناح الغرف التى تقيم فيها أم راهولا ، وفتح باب غرفتها ، وكان فى داخل الغرفة مصباح يحترق ، مضاء بزيت له رائحة حلوة ، وكانت أم راهولا نائمة على سرير قد نُثر كلّه بالياسمين وبغيره من الأزهار وكانت يدها مستقرة على رأس ابنها ، فلما اقترب البوذا المنتظر من مدخل الباب توقف وحملق فى الاثنين من المكان الذى وقف فيه وقال : « لو رفعتُ يد زوجتى من على رأس الطفل وحملته ، ربما أستيقظت ومن ثم تعوق رحيلى . سأنتظر حتى أصير بوذا ثم أعود لأرى ابنى » ، وبعد قوله هذا هبط من القصر .

وبعد أن ركب جواده الضخم السريع ، كانثاكا ، وبعد أن أصدر أوامره إلى « تشونا » بأن يتعلق بذيل الجواد ، غادر الأمير المدينة ، وللإقلال من جلبة ركض الجواد ومن صوت صهيله اتخذت الآلهة إجراءات خاصة ، « إذ أن كل خطوة كان يخطوها كانوا يضعون راحات أيديهم تحت أقدامه » ، وعند بلوغ بوابة المدينة ظهر عائق كبير ، ذلك أن البوابات التى كانت قد شيدت خصيصاً لمنع الأمير من أن يغادر المدينة دون علم أبيه كانت تحتاج إلى ألف رجل لتحريكها ، وتذكر لنا رواية الكتاب المقدس الهندوسى أن البوذا المنتظر ، لما كانت العناية الإلهية قد منحته « قوة لو حسبت بقوة الأفيال لعادلت عشرة آلاف مليون فيل » ، فلقد كان فى استطاعته دون أدنى صعوبة أن يفتح ضُلَف البوابات الضخمة أو أن يحمل نفسه وجواده وسائق مركبته الأمين ، كلهم جميعاً ، فوق البوابات . ولقد ثبت أن هذا العمل لا داعى له ، لأن الإله المقيم بالبوابات لما أدرك أن البوذا المنتظر يريد مغادرة المدينة ، فتح البوابات الكبيرة

يمكنه من المرور. ولم يكد الأمير يقتحم الخلاء المكشوف حتى واجهته تجربة جسيمة ، ذلك أن أمير الظلمة ، مارا[١] Mara ، وقد اتخذ صورة شخص مرئى ، أحاطه علماً بأنه فى خلال سبعة أيام من المقرر أن يصبح الحاكم العظيم الذى تحدث عنه البراهمانيون ، فلو أراد أن يصرف النظر عن كل هدف للسعى وراء التَّنَوُّر فى الغابة ، لكان لزاماً عليه أن يقفل راجعاً ، ويعد العدة ليحكم إمبراطوريته ، ولكن الأمير استخف بمثل هذه النصيحة ، وأعلن أنه لم يكن يطمع فى أية سيادة دنيوية وقال : «إننى على وشك أن أكون سبباً فى أن أجعل عشرة الآلاف عوالم تلهج بذكرى عندما أصير بوذا» ، ولكن هذا القول لم يثن «مارا» فقال مهدداً : «سأمسك بتلابيبك منذ أول مرة يصبح فيها تفكيرك شهوانيًّا ، خبيثاً أو قاسياً» . وعلى ذلك تعقب «مارا» الأمير الشاب كظله فى جولاته ، ولم يفقد الأمل على الإطلاق فى أن يثنيه عن الرسالة المقدسة التى كرس نفسه لها . ومن ثم ، فقد لقى البوذا فى مستهل عمله كمنقذ للبشرية ، وقد سبقه فى ذلك زارادشت والمسيح ، لقى هجوماً من قوى الشر لم تكن تهدف كثيراً إلى تحطيمه بقدر ما كانت تهدف إلى إفساده ، وفى كل حالة كان الطُّعم المقدم طعماً ذا قوة وقتية .

وعند ما بلغ الأمير الغابة التى اعتكف فيها عدد كبير من الأشخاص القديسين والمتقشفين ، صرف سائق مركبته الأمين بعد أن أهدى إليه الحلى والملابس الثمينة التى لم يعد فى حاجة إليها . وبعد ذلك قام إله متخف فى زى ناسك، بتزويد الأمير الشاب بملابس بالية خليقة بشحاذ . وقد أعرب «تشونا» أيضاً عن رغبته فى اعتزال العالم ، ولكن سيده أصر على أن هذا العمل لم يكن نداء موجهاً إليه (أى إلى تشونا) . ثم طلب «جوتاما» من حكماء الغابة – نظراً لجهله بأساليب حياتهم – أن يحيطوه علماً بمختلف الأساليب التى يمكنه بها اكتساب الحكمة والقدسية ، وكان قد سبق له أن استمع إلى قصص غامضة عن نظامهم الصارم : كيف أن بعضهم عاش على بضع حبات من القمح ، وبعضهم على الكلأ ، ومازال بعضهم ، مثل الثعابين ، يطيرون فى الهواء[٢] . وبالاستسلام لمختلف درجات الألم ، كان يعتقد النساك فى أنفسهم أنهم اقتربوا من بلوغ الكمال الخلقى . لقد أعلنوا أن «الألم هو أصل الموهبة» . هذا الموقف تجاه الحياة والمعاناة ، برغم تأثيره على البوذا المنتظر ، قد فشل فى إرضائه . لقد رأى فى

(١) جدير بالذكر أن الكلمة الإنجليزية Night-Mare (ومعناها الكابوس) مشتقة من هذا الاسم.

(٢) خرافة قديمة.

مثل هذا النضال وراء الموهبة دافعاً قويًّا للترابط ، أملاً كامناً فى الولادة للمرة الثانية ، وتعلقاً حاذقاً بالحياة ، فى حين أنه منذ أول نظرة ألقاها على الرجل المسن والمشلول والمتوفى ، ترعرع عنده الاعتقاد بأن الميــــلاد فى ذاته شر ، وأنه شىء يجب أن يوضع له حد ؛ والعمل يولد الحياة . وبرغم اقترابهم من التمسك بآخر خيط حيوى ، فإن هؤلاء النسّاك المتقشفين لا يزالون رجال عمل ، إذ يبدو أن طريق التقشف طريق لا يؤدى إلى الـ «نيرفاناNirvana» ، بل يرجع بالمرء مرة أخرى إلى عالم الخيال والولادة للمرة الثانية .

وبعد تبادل عبارات التقدير المنطوية على المجاملة من الجانبين ، غادر «جوتاما» فى هدوء الحكيم «آراته Arata» ومَنْ فى صحبته من النسّاك المتقشفين ، واستأنف جولاته مرة أخرى . وفى الوقت نفسه ، عندما قفل «تشونا» راجعاً إلى داره مع كانثالا ، كان نبأ رحيل «جوتاما» من أجل الاعتكاف العظيم قد انتشر بسرعة بين رجال البلاط . وكان أكثر الجميع رفضاً لتقبل العزاء زوجة الأمير الشاب ، التى أعادت إلى الأذهان نفس السلوك المتباين للساعين السابقين وراء الحقيقة . لقد أعلنت أنه «إذا كان يرغب فى ممارسة حياة دينية بعد تركه لى ، وأنا زوجته الشرعية ، كأرملة – فأى ديانة هى ديانته هو الذى يرغب فى أن يتبع طريقها دون أن تشاركه فيها زوجته الشرعية ؟ لعله لم يسمع ، بكل تأكيد ، عن نسّاك الأزمنة القديمة ، لعله لم يسمع عن جده هو نفسه ماهاسودارسا Mahasudarsa والبقية – كيف أنهم ذهبوا فى رفقة زوجاتهم إلى الغابة – لكى يريد هو إذن أن يمارس حياة دينية بدونى . . . لابد أن هذا المتيم المولع بالدين ، لابد أنه يعرف ، بكل تأكيد ، أن ذهنى فى صراع خفى حتى مع محبوبى ، فتركنى فى استخفاف وبلا جزع ، وتركنى على هذه الصورة مما أثار غضبى ، على أمل أن يجد حوريات سماويات فى عالم إنديراIndra» . ثم انتقلت أفكارها بعد ذلك وعلى الفور إلى طفلها الصغير ، راهولا ، وقد بدا كما لو كان مولاها قد اقترف إساءة مزدوجة فى هجره إذن لكل من الأم والابن .

وعندما وصل البوذا إلى مكان غاية فى الجمال يدعى يوروفيلاUruvela، على بعد خمسين ميلاً تقريباً من باتناPatna، قرر البوذا المنتظر أن يستأنف تأملاته . ولكى يجرد ذهنه من الأفكار المحيرة ، عزم على أن يبدأ صوماً منتظماً غاية فى الصرامة والشدة . لقد حاول تجربة العيش على فواكه الجوبجوب Jubjube أو على بضع حبات من السمسم والأرز ، مقللا بانتظام من طعامه اليومى حتى حصره فى حبة واحدةَ ، فارتخى لحمه ، وذبل وكاد يلتصق

obeikandl.com

جلده بعظمه . لقد اعترف فيما بعد بقوله : «كان الأثر الذى يتركه جلوسى يشبه أثر خف الجمل ، من جراء قلة الطعام ، وكانت عظام عمودى الفقرى عند انحنائى واستقامتى أشبه بصف من المحاور من قلة الطعام . وكما يحدث فى بئر عميقة ، يُرى الماء القليل العمق برّاقاً ، فكذلك كان حال حجاج عينىّ ففيهما كان يرى بريق عينى القليل العمق من قلة الطعام . وتماماً مثلما أن القرع إذا ما قطع فجأة يتشقق ويذبل من أثر المطر والشمس فكذلك خف جلدى من أثر قلة الطعام . وعندما ظننتُ أن بمقدورى أن ألمس جلد معدتى ، وجدتنى أمسك بالفعل بعمودى الفقرى» . وحتى لا يتهمه أحد بأنه فشل فى ممارسة القمع الذاتى للشهوات بصورة جدية ، اتبع هذه الأساليب التقشفية إلى درجة لا ينقصها إلا الانتحار .

وهكذا عاش «جوتاما» عيشة يندر أن تكون فوق مستوى الوجود ، مدة بلغت ست سنوات سعياً وراء الوصول إلى القداسة عن طريق الانغماس فى إنكار الذات . وأخيراً ، لقد كان برغم مآثره فى التركيز الذهنى ، يتبع برنامجاً أفضل قليلاً من البرنامج الذى يتبعه المتقشفون الذين كان يعبرلهم عن استخفافه بهم . إن نفس انغماسه فى تجربة إنكار الذات لم يكن شيئاً سوى صورة من صور الانغماس فى النفس . وفضلاً عن هذا ، فان احتدام جهوده فى قمع الشهوات ، وهو أبعد من أن يكون دافعاً لحالة نفسية من الهدوء ، قد يولد تقلباً وانفعالاً . وطوال استمراره فى العبث بالحياة أو مداعبته الموت باتباع طريق من التقشف المتطرف ، كان الهدف الذى يسعى إليه ، هو الذى يغريه . كان لابد له من أن يحافظ على توازنه ، ولكى يحقق ذلك يجب أن يسترد قوّته. والهدوء العقلى يجب أن يسعى إليه على طول طريق وَسَطٍ بين التطرف فى إنكار الذات والانغماس الذاتى . واختتم كلامه قائلاً إن «التأمل الصحيح يتولد فى مَنْ عقله حاضر البديهة وفى راحة وهدوء» . وفى الوقت المناسب أحضرت له قروية شابة تدعى سوجاتا Sujata ، أحضرت له لبناً وأرزاً . وباستئناف تناول الطعام العادى ، وإن كان لايزال مقتصداً فيه ، استرد أخيراً الأمير عنفوانه ، ولم يكن قد حرم من شىء ؛ ولكن تغيُّر موقفه صرف عنه أتباعه الخمسة الذين كانوا قد التفوا حوله .

التَّنَوُّر :

فى التخلى عن التقشف المظهرى لنسّاك وحكماء عصره ، لم يتخل «جوتاما» عن تمريناته الروحية ، وبعودة نشاطه البدنى ، بدأ فى اتباع برنامج فى التأمل . وقد أدرك فى هذه المناسبة ،

أن بحثه يجب إما أن يكون داخل نطاق هدفه ، أو ينتهى بعدم الجدوى وانقشاع الوهم ، والأمر يوجب اتخاذ قرار راسخ . وقد جاء فى كتاب « محبة البوذا Buddha-Charita» (الكتاب الثانى عشر) ما يلى : « ثم جلس على فخذيه فى وضع ثابت لا يتحرك ، وأطرافه مكومة كغماء ثعبان راقد ، وقال متعجباً : إننى لن أنهض من هذا الوضع على الأرض حتى أحقق أقصى هدف لى » .

وكانت الشجرة التى جلس تحتها « جوتاما » هى شجرة البوذى Bodhi الشهيرة أو شجرة التين ، التى ظهرت إلى الوجود فى اللحظات التى ولد فيها الأمير . والمعنى الحرفى لكلمة « بوذى » هو المعرفة ، والشجرة ذاتها كانت شجرة التين التى أطلق عليها الناس اسم بيبال Pipal. وتسمى هذه البقعة المباركة الآن باسم بوذ جايا Bodh Gaya، ومكانها فى بيهار Bihar، حيث شيد معبد ضخم حوالى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد ، وتوجد بالقرب منه شجرة تين ، لعلها كانت من سلالة شجرة التين المقدسة ذاتها . وبينما كان جوتاما جالساً عند هذه البقعة ، خَبَرَ ثانى وأعنف سلسلة من غوايات « مارا » ، وكان إله الشر والظلمة قد جنَّد كل أصدقائه فى أرجاء الكون . وإلى هناك جاءت شياطين من كل شكل يمكن تصوره ، وكانت كلها سواء فى فظاعتها وفى سرعة دورانها فى الهواء ، وكانت متملقة ومهددة فى آن واحد : لأنه بعد هجوم الشياطين بقذائفها الطائرة ، جاءت مجموعة من الفاتنات الطائرات ، أملهن على النقيض من ذلك ، أن يحركن شهوانيته . وإنه لأمر حيوى بل مروع ، وصف هذه المجموعة القادمة من الجحيم ، مما يدفعنا إلى إدراك غرضها الرمزى : لما كان « جوتاما » على وشك أن يتخذ قراراً أخذت تداهمه لآخر مرة الشكوك والالتباسات ، فضلاً عن مباهج وغوايات الوجود الإنسانى . لقد كانت الخطوة الأخيرة أشبه بآخر صعدة لمتسلق الجبل نحو الأمان ، عندما يبدو فى لحظة أن كل ما صعده فى خطر من الضياع . ولما كان « جوتاما » وفيًّا لعهده ، فقد رفض أن يتردى إلى اللهو ؛ ولو اهتز توازن عزيمته لما كان ليتزحزح . ولما كان ذهنه قد جمع شتات نفسه لمجهود رفيع من التركيز ، إذ فجأة ، ولأول بصيص من الفجر ، « بهيكل الجهل وقد تكسر » وبلغ المعرفة التامة ، وصار « الحكيم الكامل الـ « بهاجافات Bhagavat» (الإله) والـ « أراهات Arahat » ملك القانون ، والـ « ياثاجاتا Yathagata» ، من بلغ معرفة كل شىء ، الإله العليم بكل شىء . « هذه البصيرة أعقبتها رؤيا لكل الأبدية فى ومضة واحدة ، مع سلسلة كاملة من الأنسال على كل مستوى من مستويات الوجود تنتظم

أمام عينيه .

وتمثل خبرة « جوتاما » تحت شجرة التين ، اللحظة الحقيقية – وفى اعتقاد بضعة ملايين من البشر ، اللحظة الأكثر أصالة – لتنور النبى ، النبى الذى له صلة قدسية . وبالنسبة للعقلية الغربية ، فإن المظهر الغريب لهذه الرؤيا الفريدة هو فيما يبدو أنها تنير فراغاً ، فليس هناك من إله يمسك ، كما هى الحقيقة ، بالطرف الآخر من الخيط [٣] . صحيح أنه ليس هناك إله ، ومن ناحية أخرى ، هناك شىء : مثل الألوهية ، وعن طريق قانون « الكارما » هناك عقاب إلهى وثواب إلهى . هذا القانون المعقد تعقيداً عجيباً يعمل من منطقة خارج الزمن وفيما وراء التقصى البشرى ، وهو لم يخترعه « جوتاما » . لقد تقبله بدون نقاش على أنه أهم حقيقة من حقائق الخبرة . وعلى شاكلة كافة الأنبياء ، لم تكن رسالة « جوتاما » إلى حد كبير ، إدخال قانون جديد بقصد توكيد استرجاع وإعادة توطيد الاتصالات القديمة .

ولما اعتقد « جوتاما » نفسه فى النهاية أنه قد اكتشف سر خلاص الإنسان من الغرور ، أدرك من فوره أنه قد صار « بوذا » . ومثل هذا الادراك لم يؤد إلى الاعتقاد بأنه كان أول « شخص متنور » يولد بين الرجال ، فلقد كان هناك بوذيون سابقون أو جيناس Jainas سابقون ، وقد يصبح هناك آخرون مثل « ميتريا Maitreya » . وعلى شاكله « مهافيرا » و « زارادشت » ، بدأ « جوتاما » مهمته بالاعتقاد بأن التنور قد وهب له فى وقت معين ولغرض معين . أما عن تلاميذه وخلفائهم ، فيمكن أن نتعقب فيهم اعتقادهم بأن رسالته كانت فريدة [٤] ، بالرغم من أنها كانت واحدة من بين غيرها من الرسائل .

وطبقاً لما جاء بالكتب الهندوسية المقدسة ، أن « جوتاما » بادعائه أنه صار « بوذا » ، قد حكم على قوى الشر فى الكون بالإذلال التام . ويقال إنه لما أحس « مارا » بأن قوته على وشك الزوال ، لجأ إلى وسيلة أخيرة لإحباط رسالة « البوذا » ، وكان ذلك بإغرائه بالصعود فوراً إلى السماء ، إذ قال بناء على ذلك موجهاً كلامه إلى « جوتاما » : « يا مولاى المقدس ، أدخل البهجة على نفسك بدخول النيرفانا ، فرغباتك محققة » . وبرفض « جوتاما » لهذه الدعوة الماكرة ، صار فى نظر مدرسة من مدارس البوذيين ، ليس فقط « بوذا » بالمعنى

---

(٣) سنناقش هذه النقطة مرة أخرى فى خاتمة الكتاب .

(٤) يذكر عنه أحيانا أنه هو التجسيد التاسع للفيشنو Vishnu (على حد اعتقاد البرهمانيين الذين خلفوا البوذية) .

التقليدى ، بل « بوذيساتفا Bodhisattva » أو من يتخلى عن طيب خاطر ، سعياً وراء إنقاذ العالم ، عن دخول النيرفانا ، إذ قال : « سأعمل أولاً على توطيد الحكمة التامة فى عوالم عددها كعدد الرمال ، ثم أدخل النيرفانا » . ومن ثم فلقد كانت قوى الشر لا يكبح جماحها دائماً إلا « البوذا » ، الذى أجّل لمدة ثمانين عاماً طريقه إلى الزوال .

وبعد بضعة أسابيع من تلقيه التنور ، رحل البوذا إلى مدينة « بنارس » المقدسة ، وقام بعدة هدايات فى أثناء رحلته . وفى الوقت الذى يتصور فيه علم الأسطورة التقليدى « البوذا » على أنه شخصية جليلة وسامية ، إذ بالرجل الذى كان عليه أن يغير نظرة ملايين كثيرة : يمضى حياته كشحاذ يعيش على الإحسان . وفضلاً عن هذا ، فإن ادعاءه أنه صار « بوذا » ، لم يوهب « جوتاما » موهبة خاصة للتأثير على أتباعه ، اللهم إلا القدوة الحسنة ، وإلا البلاغة . ولا تتفق رسالته فى شىء مع رسالة الساحر أو رجل الطب . وبدلاً من علاج المعاناة ، نادى فقط بالتعرف على حقيقة أمرها . وكان على تلميذه ، بعد تنوره ، أن يعمل على تحقيق خلاصه الذاتى . ولم يتضمن التنور أيضاً أية ممارسة معينة للإدراك : إذ لم يكن أحد من كبار دعاة المذاهب ميتافيزيقيًّا ، اللهم فيما عدا كريشنا (الذى نقحت مؤخراً محاوراته فى الـ « بهاجافادجيتا ») . لقد قال « البوذا » فى مناسبة من المناسبات : « إن إثبات النيرفانا ليس إثبات أعداد ولا إثبات منطق : فليس على العقل أن يثبت بل على القلب » (نقلاً عن كتاب : لانكافاتورا سوترا Lankavatura Sutra) . ولم يستخف البوذا بالتأمل الميتافيزيقى فحسب ، بل كان يتطلع إليه فى أحسن صوره على أنه تحول ، ثقافة غير ضرورية ، أشبه بالأفعال البهلوانية ، وفى أسوأ صورة على أنه عائق لفهم الحقائق البسيطة ، لو كانت غير مستساغة ، ومن كان على صلة روحية لا يحتاج إلى الميتافيزيقيات . والميتافيزيقيات إن هى إلا نتيجة تعقب جدلى[٥] Disputatious Discipleship .

وفى شمال بنارس توجد حديقة اسمها « حديقة الغزال » ظلت مثل « بوذ جايا » ، مكاناً للروابط المقدسة فى نظر البوذيين . وإلى هذه الناحية خطا « البوذا » خطواته بعد أن عبر نهر الجانج فى صورة من صور الطيران فى الهواء ، لعله كان يعلم أنه قد يجد هناك تلاميذه الذين

(٥) نحن لا نتفق مع الأسقف جور Gore فيما ذكره فى كتابه فلسفة الحياة الصالحة Philosophy of the Good Life الذى جاء فيه أن « دعوة « البوذا » كانت أسمى درجة من درجات الإدراك ومن ثم فإن أناساً على شاكلة غير المتعلمين وغير البارعين فى التأمل التجريدى لا يمكنهم أن يفهموه » ، والرد على ذلك هو أن البوذا تجنب التأمل التجريدى .

طردهم مؤخراً ، فلما وجدوه يقترب منهم شعروا باستنكار عام ، وقال واحد منهم للآخر : « هذا هو جوتاما الناسك الذى تخلى عن ضبط نفسه ، وهو يتجول الآن ، نهماً ، ذا نفس غير صافية ، غير مستقرة ، وأحاسيسه ليس لها ضابط ثابت ، متحمس للبحث عما يأكله . إننا لن نسأل عن صحته ولن ننهض للقائه ، ولن نكلمه ولن نرحب به ولن ندعه يجالسنا ، ولن نسمح له أن يدخل دارنا » . لقد أدرك البوذا عداوتهم له ولكنه تجاهلها . لقد كان لبساطته فى الاقتراب منهم ، وهو ممسك بوعاء الشحاذة فى يده ، ما أفحمهم . لقد وجدوا أنفسهم يهبون واقفين ، فقال لهم فى هدوء : « اعلموا أننى جيناJaina وأننى قد جئت لأكون أول من يدفع إليكم بعجلة القانون » . وبعد أن وافق « جوتاما » على انضمام الرجال الخمسة إلى طائفة دينية جديدة للاستجداء ، تقدم ليعظهم أول موعظة من مواعظه العظيمة وكان عنوانها « منهاج لتسيير عجلة المبدأ » ، وهى تعد أحياناً كمثل بوذى لـ « موعظة الجبل Sermon on the Mount »(٦).

أولى التعاليم :

سميت « عجلة المبدأ أو القانونThe Wheel of Doctrine or the Law » بهذا الاسم لأنها تهتم بعجلة الحياة البشرية والولادة للمرة الثانية . وبدون التنور ، فالوجود ليس سوى تعاقب حيوات عديمة النفع ، وعمل رتيب للفناء ، سامساراSamsara كيف كان إذن فى الإمكان الوصول إلى التنور ؟ تبدأ موعظة « البوذا » بعرض للإفراطين اللذين يجب تجنبهما : فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولا شىء يدفع بالعجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لايزيد من سخطنا على كل شىء آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه لملئه ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفاء لدين . وأما الإفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس Mortification . وطبقاً « للبوذا » ، فإن هذا الإفراط لم يكن أكثر فائدة من الأول ، إذ إنه لاينجم عنه فحسب زيادة اضطراب بل يؤدى أيضاً من الناحية المنطقية إلى الفناء قبل اكتساب أية ميزة حقيقية . كان هذا هو

---

(٦) إشارة إلى ماكان يلقيه المسيح عليه السلام من مواعظ على الجبل . (المترجم) .

الاعتراض على أنه لو كان «البوذا» قد عرف هذه الحقيقة (ومن المحتمل أن يكون قد عرفها) لفضّلها على تعاليم «مهافيرا». إن الهدف الحقيقى الذى يكون السعى لبلوغه هو الهدوء والسكينة، وهو الشرط، وفى العادة الدلالة على الحكمة. وسيرا على نهج الحكماء العظام الذين كتبنا عنهم، يعرِّف «البوذا» وسيلة الحفز إلى هذا الإطار العقلى بأنها كغرس لموقف «سليم» سلامة تستمد دقتها بكونها ثمرة «الطريق الوسط» بين إفراطيْن. ويتألف «الطريق السليم ذو الثمانى شعب» كما يسمى، من وجهات نظر سليمة، غرض سليم. حديث سليم، سلوك سليم، وسيلة سليمة للعيش، مسعى سليم رغبة سليمة، تفكير سليم، ويغرس هذا الموقف المتزن سنصل إلى إيقاف هذه المعاناة الشاملة التى هى نتيجة حتمية ومصاحبة للرغبة. والرغبة كما يلاحظ «البوذا» بخاصية التبصر هى التى تسبب «تجديد الصيرورة The Renewal of Becoming».

وتحليل البوذا للرغبة Craving صار معروفاً فى الكتب الهندوسية المقدسة على أنها «الحقائق الأربع النبيلة»، وهى تشكل ملخصاً دقيقاً للألم الذى هو نتيجة الرغبة. يورد أولا تعريف ماهو مؤلم: الميلاد، كبر السن، المرض، الحزن، واليأس والقبح وما إلى ذلك، ثانياً: يورد تعريف سبب الألم الذى هو الرغبة؛ ثالثاً: يورد تعريف كيف يمكن التغلب على الألم، الذى يأتى عن طريق عدم الاتصال، ورابعاً يورد تعريفا بالمبدأ الذى يمكن الوصول عن طريقه إلى عدم الاتصال، الذى هو الطريق ذو الثمانى شعب.

وابتداء بالنسَّاك الخمسة أو البهيكوس Bhikkus، الذين صاروا أول النسّاك البوذيين الحقيقيين، اتجه البوذا إلى هدى المئات ثم الألوف، ثم بمضى الوقت الملايين. وأرسلت بعثات معتمدة فى أرجاء «أوذ» و«بيهار» و«البنغال»، وإن كان فى الواقع كل ناسك ومعه وعاء شحاذته مبعوثاً شاهداً على التنور. وكانت أوامر «البوذا» اليومية لنساكه: «قوموا بجولاتكم لخلاص الكثيرين، لسعادة الكثيرين، مع الإشفاق على الكل، لخير الآلهة والناس» وبالرغم من أن «البوذا» كان يعظ ويطبق معاً فضائل الرقة والتواضع والتنظيم الذاتى والاحتمال، فإنه لاجدوى من تصوره فى صورة من يعوزه النشاط والحماسة بل حتى العاطفة. وبعض مواعظ «البوذا» المسجلة ممتلئة بنوع من الرقة واللطف، التى نقرنها بمواعظ القديس فرانسيس الأسيسى St. Francis of Assisi وإن كان هذا الاقتران ليس بصورة دقيقة دائماً، أما المواعظ الأخرى، وبصورة خاصة، موعظة النار Fire Sermon أو «موعظة

عن الدروس المستخلصة من الحرق »[٧] فهي واحدة من أعظم مواعظه ، وهي تعرض نوعاً من العاطفة التي نجدها عند أهم أنبياء العبرانيين ، فضلا عن أنها كتبت بلغة لم يكتب الشعراء قط بلغة لها مثل هذه الدرجة من القوة . وموعظة النار يجب ألا تؤخذ منها مقتطفات : فهي تشكل فقرة طويلة من عبارات حماسية . ولم يحدث من قبل على الإطلاق ، ولا في أي مكان آخر من العالم ، ربما فيما عدا بابل ، فيما يتصل بالأسرى اليهود – إذ ربما كان « البوذا » معاصراً لأشعياء الثاني – أن وُصفت الطبيعة البشرية على حالها ، بمثل هذه البلاغة :

« أيها الكهنة ، كل الأشياء متقدة ناراً : الصور متقدة ناراً ، الوعي العيني متقد نارا ، الانطباعات التي تتلقاها العين متقدة ناراً ، وأي إحساس : بهيجاً كان أو غير بهيج أو تافه ، يعتمد في أصله على الانطباعات التي يتلقاها عن طريق النار هي أيضاً متقدة نارا ، وبأي شيء هذه الأشياء متقدة ناراً ؟

« أقول ، بنار العاطفة ، بنار الكراهية ، بنار الافتنان بالميلاد ، بالشيخوخة ، بالموت ، بالحزن ، بالرثاء ، بالبؤس ، بالأسى ، وباليأس ، كلها متقدة ناراً .

« والأذن متقدة ناراً . والأصوات متقدة ناراً ... والأنف متقد ناراً ، والروائح متقدة ناراً .. واللسان متقد ناراً ، والأذواق متقدة ناراً . والجسد متقد ناراً ، والأشياء المحسوسة متقدة ناراً .. والعقل متقد ناراً .. والأفكار متقدة ناراً .. والوعي العقلي متقد ناراً . والانطباعات التي يتلقاها العقل متقدة ناراً وأي إحساس ، بهيجاً كان أو غير بهيج أو تافه يعتمد أساساً على الانطباعات التي يتلقاها العقل ، الذي هو أيضاً متقد ناراً ، وبأي شيء هذه الأشياء متقدة ناراً ؟

« أقول ، بنار العاطفة ، بنار الكراهية ، بنار الافتنان بالميلاد ، بالشيخوخة ، بالموت ، بالحزن ، بالرثاء ، بالبؤس ، بالأسى ، وباليأس ، كلها متقدة ناراً .

« بإدراك هذا ، أيها الكهنة ، يحس الإنسان العالِم والحواريّ النبيل بمقت للعين ، ويحس بمقت للصور ، ويحس بمقت للوعي العيني ، ويحس بمقت للانطباعات التي تتلقاها العين ، ولأيما إحساس بهيجاً كان أو غير بهيج ، أو تافه ، يعتمد أساساً على الانطباعات التي تتلقاها العين ، فذلك أيضاً يحس بمقته له .. وفي الإحساس بهذا المقت ، يصبح مجرداً من العاطفة ،

---

(٧) Sermon on the Lessons to be drawn From Burning.

وفى غياب العاطفة ، يصبح حراً ، وعندما يكون حراً يصبح على دراية بأنه حر ، ويعلم أن الولادة للمرة الثانية أمر مستبعد وأنه قد عاش الحياة المقدسة ، وأنه قد أدى ماهو مفروض عليه أداؤه وأنه لم يعد له بقاء بعد ذلك فى هذا العالم »

وقد يكون عجيباً كيف أن فلسفة تكاد تكون قائمة كلها على المقت لكل ماهو بشرى وطبيعى ، أتيح لها أن تصبح « نظرية حياة View of Life » لمئات الملايين من الناس : ألا يمكن أن تكون النتيجة المنطقية لمثل هذه الاستنكارات للحياة هى : « الجينا » الروحية الذاتية للرغبة ؟ من الواضح لأنه ليس كذلك . ولما كان « البوذا » قد خبر عن ترو ، مثل هذا التقشف المتطرف ، لذا فقد رفضه كأسلوب روحانى لاطائل تحته . والفقير المحترف يميل إلى أن يكون استعراضياً ، وصرامته فى أفكاره واضحة للعالم بأسره ليراها . والموقف المطلوب والذى نادى به « البوذا » يستبعد مثل هذه المظاهر . والنضال من أجل التغلب على الرغبة وعلى الشهوة شىء داخلى . وفى الوقت الذى نجد فيه أن « البوذا » قد نبذ اللحم ، يلاحظ أن هذا التخلى لاتصحبه هستيريا مذهب المتطهرين الغربيين Western puritanism ، وهى ببساطة دلالة على اجتذاب مستتر . وللتعبير عن كراهية لاحد لها لحياة الأحاسيس هو أن تضيف وقوداً إلى نار من « النيران » هى فى حاجة لأن تخمد بأسرع مايمكن ، أعنى بذلك نار الكراهية .

ولم يرجع « البوذا » إلى استعارة النار فى « موعظة النار » فحسب بل إن الصورة لتتكرر مرة أخرى فى أقواله المسجلة . ولعلنا نذكر أنه قبل « الاعتكاف العظيم » عندما استيقظ من السبات الذى كان يغط فيه فى الاحتفالات التى شهدها القصر ، خبر إحساس من شبت فى داره النيران . بمعنى آخر ، كان فى اعتقاده أن الإجراءات العملية للخلاص أكثر أهمية من البحث وراء أصل الحياة والشر والإله وكلما سئل البوذا أسئلة عن الإله ، كانت إجاباته تنم عن مراوغة مبهمة ، وكانت أحياناً بصراحة ، إجابات غير مرضية [٨] ففى مناسبة ، على سبيل المثال ، سأله واحد : « سيدى ، هل هناك إله ؟ » فلم يرد على سؤاله بجواب بل بتوجيه السؤال التالى : « هل قلتُ أنا أن هناك إلهاً ؟ » وعليه رد السائل وهو فى حيرة بقوله : « إذن ليس هناك إله ، ياسيدى ؟ » فرد البوذا على ذلك بسرعة قائلا : « هل قلتُ إنه ليس هناك إله ؟ » مثل هذا الموقف المراوغ ، موقف غير عادى بالنسبة لزعيم دينى ، ويمكن إدراكه فقط لو أننا أخذنا

(٨) سنلاحظ أن إجابات كنفوشيوس Confucius كانت بالطريقة نفسها .

فى اعتبارنا ملاحظة كان مولعاً بترديدها على مسامع تلاميذه ، وهو يقدم مرة أخرى الصورة المألوفة هى : « لو شبت النار فى منزل ، هل تتجه أولا إلى تعقب منشأ النار أم أنك تحاول أن تخمدها؟ » . وليست عند الـ «تاثاجاتا Tathagata » أية نظريات ، وتلخص رسالة « البوذا » فى بلاغة تامة . إن ماعنده فقط الجانب العملى . ويلاحظ فى شعر « البوذا » الحماسى العظيم المسمى باسم « ذامّاباراداDhammapada » الذى يعتبره بعض علماء الشرق فى مكانة تفوق الـ « بهاجافاد – جيتا » نفسها – يلاحظ أنه تتردد فيه الكلمات التالية : «كيف يكون هناك ضحك ، كيف يكون هناك مرح ما دام العالم دائماً فى احتراق ؟» .

عودته إلى داره :

يعد تعقب أحداث حياة البوذا من لحظة تنوره التى حدثت عند ما كان فى قرابة الخامسة والثلاثين من عمره ، إلى لحظة وفاته بعد ذلك بنحو خمسة وأربعين سنة ، يعد أمراً صعباً . ومرد ذلك إلى تعدد الأساطير التى تجمعت حول اسمه . ومن الأحداث العظيمة فى حياته التى يمكن أن نعلق عليها ثقتنا أن أوبته إلى داره فى وطنه وإلى أسرته ، ربما كانت أكثر درامية . وأيًّا كانت براعة أعماله وسلوكه قد بلغ خبرهما مملكة الهملايا النائية ، فلم يكن الملك العجوز ولا الزوجة التى كانت لاتزال شابة ، غير معدّين تماماً للمشهد الذى حياهم به البوذا فى النهاية ، برغم أنهما بعثا إليه مراراً وتكراراً برسائل يرجوانه العودة . وفى ارتدائه ، فى بساطة زياً أصفر كزى الناسك التقليدى ، وبرأسه الحليق ووجهه الحليق[٩] ، دخل الأمير الذى كان قد استبدل بمُلْكٍ دنيوى ملكاً سماوياً ، دخل المدينة التى شهدت مولده ، بطريقة لم تكن تتوقعها أسرته على أقل تقدير . إذ « باجينا » الذى لم يكن فى استطاعة أية امرأة أن تلمسه ، يصبح محرماً أنْ تحييه زوجته هو نفسه ، ولذا كان أهل المدينة فى دهشة لرؤية الأميرة تقف وقفة الشخص المتباعد فى الوقت الذى كان زوجها يتحرك فى اتجاه القصر الملكى الذى كان قد غادره خفية .

كانت زيارة البوذا فترة نشاط تبشيرى عظيم ، ولكن بالرغم من أن « جوتاما » قد رفض كل الروابط الدنيوية ، فلقد كان حريصاً على أن يولى احترامه لأسرته ، بل لقد قام برحلة

(٩) قارن ذلك بما جاء فى كتاب «نور آسياThe Light of Asia» تأليف «ادوين آرنولدEdwin Arnold» : «يرتدى ثلاثة أردية بسيطة ، صفراء اللون من قماش مرتق يرتديها والكتف حاسر ، بالإضافة إلى حزام ووعاء شحاذة ومصفاة» .

خاصة إلى « غابة لومبينى » ، وهناك ، ولنقتبس كلمات كتاب « محبة البوذا Buddha-Charita » : « رأى شجرة التين المقدسة ووقف بجانبها مبتسماً يتذكر مولده » . كانت هذه هى المناسبة الوحيدة ، كما يبدو ، التى لم يثر فيها موضوع ولادته شيئاً سوى الكآبة . وبعد أن كرم ذكرى أمه ، تقدم ليستقبل فى طائفته الدينية عدداً كبيراً من أبناء وطنه ، من بينهم أفراد من أسرته ، وعلى رأسهم زوجته وابنه وأخوه . وقد دُفع أخوه « ناندا Nanda » دفعاً إلى الانضمام إلى هذه الطائفة ، عن طريق خدعة ، وقد اضطر بالقوة إلى أن يحلق . ولربما كانت رواية هذه العملية ، عملية الضغط على الأشخاص ، ربما كانت الحادثة الهامة الـوحيدة الطريفة تماماً فى الكتب المقدسة لأية ديانة من الديانات ومن ثم ، فقد تحقق وعد « جوتاما » بالعودة إلى أسرته ، وزال غضب زوجته وحل محله ولاء دائم . ولم يعد البوذا إلى داره مرة أخرى على الإطلاق وإن كان قد سُجِّل أنه قام برحلة روحية ليستقبل أنفاس أبيه الذى كان على فراش الموت ، وفى مناسبة من المناسبات قضى ثلاثة أشهر فى السماء يلقن أمه القانون .

ولما هو معلوم من مقته للجنس ، فلا يمكن أن يكون السماح بانضمام النساء إلى طائفته الدينية قد تقرر دون تفكير عميق . عندما قرر فى النهاية أن يسمح للنساء بأن يصرن راهبات مبتدئاً بخالته « مايا براجاباتى » ، قيل إنه لاحظ فى مرارة أنه بهذا العمل قد وفر على الأقل نصف الفترة التى يجب أن تباشر خلالها ديانته نفوذها فى العالم . وواضح أنه قدر هذه الفترة بخمسمائة سنة ، ولو أن البوذية قد انتعشت بالفعل أربعة أضعاف المدة المتوقعة لها . وبرغم أنه حذَّر أتباعه من الرجال بالإقلال من التعامل مع النساء قدر المستطاع ، لم يُظهر هو نفسه نفوره من تكرار مصاحبتهن ، فمثلا عندما قابلته المحظية المشهورة « أمباپالى Ambapali » فى غابة المانجو الخاصة بها فى فيسالى vesali حيث يبدو أنه كان قد ذهب إليها عمدا ، حياها بمنتهى الأدب واتجه على الفور « ليعلمها ويوقظها ويحثها ويدخل عليها البهجة بمحاضرة دينية » . وأكثر من هذا ، عندما دعته فى اليوم التالى لتناول وجبة فى منزلها ، قَبِل الدعوة (إذ لاذ بالصمت الذى يعنى الموافقة) فتوجه فى صحبة إخوانه ومعه قريبه المفضل عنده « أناندا[١٠] Ananda » الذى كان قد حذره بصورة خاصة من العنصر النسائى . وفى هذه المناسبة ، انتهز الفرصة بالمثل ليعظ فى النهاية مضيفته التى بعدها نعتته ، على شاكلة مريم المجدلية بـ « الرسول الإلهى للبشرية » ومنحته قطعة أرض . وقد يبدو أن البوذا أراد أن يوصح ، بمظهر

(١٠) كان أناندا أحد أفراد قبيلة شاكيا **Shakya** ، فضلاً عن أنه كان ابن عم البوذا .

ينم عن عدم الاكتراث ، أنه يرى ألا تمييز بين البشر ، سواء بالنسبة للجنس أو الطائفة ، بين الصالح أو المذنب وبرغم ذلك فقد راعى أن ينهى تلاميذه ، وهو الذى كان يدرك ضعفهم ، عن أن يكونوا أصدقاء أو رفقاء أو أصدقاء حميمين للمذنبين . وبالمثل ، فإنه برغم أنه توقع أن نسّاكه « لن يتوقفوا فى طريقهم لبلوغ النيرفانا » ، فلقد كان يعلم مثلما كان يعلم زارادشت أن غالبية الجنس البشرى يمكن أن تنقذ ، ولكن بدرجات . وفى بيان عن عادات البوذا اليومية ، كتب أحد المعاصرين له ويدعى « بوذاغوشا[١١] Buddhaghosha » تعليقاً على « ديغا- نيكايا Digha-Nikaya » وهى مجموعة من المحاضرات البوذية الطويلة ، يقول فيه إنه « بعد أن ينتهى من تناول وجبته (الصباحية) يقوم السيد المبارك The Blessed One مع تقدير مناسب لمختلف نزعات عقولهم ، بتعليمهم المبدأ حتى يمكن أن ينتظم بعضهم فى الملاجىء وبعضهم يلتزم بالوصايا الخمس ، وقد يتحول بعضهم وقد يصل بعضهم إلى ثمرة عودة واحدة (إلى الأرض) أو عدم العودة إلى الإطلاق ، فى حين قد يصل بعضٌ إلى أسمى غاية ، أعنى مرحلة القديسين ، وقد يعتزل العالم » . والحقيقة هى أنه برغم حماسته المتطرفة لمبدئه كانت للبوذا – على شاكلة يسوع – بصيرة غير عادية يتغلغل بها فى الضعف البشرى ، وكانت عاطفته مساوية لإدراكه .

دنو أجله :

بعد إقامة « جوتاما » فى فيسالى ، حيث كان يُعِد بعضٌ سلوكه بطبيعة الحال ، سلوكاً خارجاً على المذهب وكان قد انقضى عليه وقت ذاك خمسة وأربعون سنة من صيرورته بوذا ، قرر أن يقضى موسم الأمطار فى قرية بيلوفا Beluva . وكان فى الوقت نفسه قد صرف عنه أكبر عدد من تلاميذه . وعندما بدأت الأمطار ، عاجله المرض فجأة وقد برّح به الألم وبدا على وشك أن يموت . وطوال هذه المحنة راوده خاطر واحد : لن يسمح لنفسه أن يموت دون أن يودع أفراد طائفته الدينية ، ولهذا قرر أن يطيل مدة حياته لفترة قصيرة .

وفى استجماعه لعزيمته لبذل مجهود يكاد يكون فى عظمته كعظمة ذلك الذى حمله طيلَة تلك السنوات الماضية منذ أن كان إنساناً عادياً إلى أن صار « بوذا » ، « تغلب على المرض مرة أخرى » ، وزايله بصفة مؤقتة . وقصة حواره التالى مع « أناندا » مثيرة جداً ، إذ أن « أناندا »

---

(١١) عاش فى القرن الخامس الميلادى .

الذى اعترف أن حالته النفسية قد انهارت عندما علم بمرض سيده ، تملكته البهجة حالما علم أنه كان لايزال فى مقدوره أن يتلقى بركة أخيرة ورسالة وداع أخير. لقد أجاب المبارك : « ماذا تتوقع الطائفة الدينية ؟ » لقد وعظت بما هو الحق دون أن أميز بين المبدأ الواضح والمبدأ الخفى ، لأنه بالنسبة للحقائق يا أناندا فإن الـ « تاثاجاتا »(١٢) لم يعتد أن يخفى شيئاً مثلما تخفى قبضة يد المعلم المغلقة بعض الأشياء ... والآن يا أناندا ، لايظن الـ « تاثا جاتا » أنه هو الذى يجب أن يقود الإخاء ، أو أن الطائفة الدينية يجب أن تعتمد عليه. لماذا إذن كان عليه أن يُخلِّف تعاليم فى أى مجال يتناول الطائفة ؟ كذلك حالى أنا يا أناندا ، قد تقدمت بى السن ، وقضيت سنين كثيرة واقتربت رحلتى من نهايتها ، لقد بلغت قمة أيامى ، وأوشكت على الثمانين من عمرى : وتماماً كالبرميل البالى ، يا أناندا ، يمكن الاستمرار فى استخدامه ولكن فقط بالاستعانة بسيور من الجلد ، ولذلك ، فاننى أعتقد أن جسد الـ « تاثاجاتا » يمكن أن يستمر فى أدائه لعمله فقط عن طريق تضميده». ثم أوصى «أناندا» بأن « يظل نشيطا رابط الجأش ، منتبهاً ، بعد أن يكون قد تغلَّب على كل من الانحراف والاكتئاب الشائعين فى العالم » .

وقد ظل البوذا لفترة من الزمن يحيا حياته القديمة ، حياة التسول وذات صباح دعا « أناندا » أن يقضى اليوم معه عند مزار تشابولا Chapola وهناك زاره « مارا » الشرير آخر زيارة له . وفى اتخاذه دوراً ، يشبه فى ظاهره دور نيكوميديس Nicomedes ، بالرغم من أنه تدفعه دوافع ماكرة خالصة تضرع « مارا » أن يكون دنو الموت من « البوذا » الانتصار الأخير للخير على الشر . ولكن المبارك ، فى إدراكه لتهكم مارا فى تضرعه أجابه قائلا : « أيها الشرير ! أدخل الفرح على نفسك ، سيتحقق موت التاثاجاتا قبل مضى وقت طويل ، ففى نهاية ثلاثة أشهر من هذه اللحظة سيولى التاثاجاتا » . وبعد أن تفوه بهذه الكلمات قرر أن يتخلى عن تلك العزيمة الغريزية فى البقاء التى اعتمد عليها وحدها منذ بدء مرضه . ولما كان تمسكه بالحياة قد تراخى ، فلقد تعرضت عناصر الطبيعة لسلسلة من الانتفاضات مساوية لتلك التى حدثت عندما حُمل به ، فكانت هناك عواصف رعدية وهزات أرضية وأمور مروعة مماثلة .

والحادثة الهامة الأخيرة التى تروى تقليدياً عن «البوذا» ، هى عن زيارته للحداد تشوندا Chunda الذى كان مسئولا مصادفة وسهواً عن وفاة المعلم . إنها قصة غريبة : فلقد قرر «البوذا» أن يبقى لبرهة فى غابة المانجو التى يمتلكها تشوندا ، وفيها دعاه مضيفه لتناول وجبة

(١٢) لقب الـ «تاثاجات» يعنى حرفيًا « من لايُعرف من أين جاء ولا المكان الذى يقصده ».

من الأرز المحلى بالسكر والكعك وعيش الغراب . وعندما كان المبارك مع إخوانه ، طلب من تشوندا أن يقدم الأرز المحلى بالسكر والكعك للآخرين وأن يحتجز عيش الغراب له وحده وتمادى أكثر من ذلك إذ قرر أن أى عيش غراب يتبقى يجب أن يحرق ، وقال مفسراً : « لأننى لا أرى أحداً على الأرض لا فى مجال « مارا » ولا فى سماء « براهما » ، لو أكل ذلك الطعام ، يمكنه أن يهضمه هضماً جيداً إلا التاثاجاتا » .

وبعد مضى وقت قصير من مغادرته لغابة المانجو التى كان يمتلكها تشوندا ، إذ « بالبوذا » الذى كان بالفعل فى صحة متدهورة ، يعاوده المرض ثانية ، وعاوده هذه المرة فى صورة ديسنتاريا حادة .

وكان سلوكه ، كما لو أن هذا المرض المفاجئ كان شيئاً ينتظره . وفى معاناته ، مع ذلك لم يعجز عن أن يراعى مشاعر مضيفه الأخير . وفى إدراكه أن تشوندا قد يتملكه الهلع والتأنيب الذاتى على أنه كان سبباً غير مباشر لألم المبارك ، أصدر تعليماته بصورة خاصة إلى أناندا بأن يريح بال مضيفه ويسكن من روعه ، بأنه بتقديمه الطعام « الذى كان مقدراً أن يكون سبباً لوفاة البوذا تلك الميتة التى لايبقى بعدها شىء أياًّ كان على الإطلاق » قد بلغ ، كما فسر ، نوعاً من الموهبة . وفى تمسكه بالإيمان الصحيح وكدليل على الاحترام والتقدير ، ربما كان عمل تشوندا يستحق بالنسبة لمقترفه غفران الكارما ، ابتداء بمد أجله وازدياد ثرائه . وهذا الأسلوب من الرعاية قد يكون بالغ الأهمية لو ظلت الرعاية حتى نهاية الزمن . وهكذا كوفئ تشوندا .

وعند بقعة تدعى غابة الموالح فى مالآس Mallas ، بالقرب من نهر هيرانيافاتى Hiranyavati قرر البوذا ، وقد هده المرض أن يعد نفسه للحظات الأخيرة . ولقد قيل إن أشجار الموالح الجميلة ، لما شاهدت جسد المبارك راقداً أمطرته بأزهارها ، فى حين هبطت موسيقى سماوية فى اتجاه الأرض « إجلالا واحتراماً لخليفة البوذات السابقين » . وفى إدراك لهذه الهدية التى جادت بها الطبيعة تلفت « البوذا » إلى أناندا وقال : « ليس هكذا يا أناندا يكرم التاثاجاتا التكريم الصحيح .. ولكن الأخ والأخت هما اللذان يحققان باستمرار كل الواجبات ماعظم منها وما صغر – هما اللذان يكرمان التاثاجاتا بأن يقدما له أعظم ولاء يستحقه » . ثم انتقل بعد ذلك إلى تحديد أماكن الحج الأربعة ، التى ينبغى أن يحث الحجاج والتلاميذ على التجمع فيها بعد أن يحرمهم الموت من معلم صالح . وهذه الأماكن من المفروض أن تكون : مكان ولادة « البوذا » ، والمكان الذى بلغ فيه رؤية الحقيقة التى تأكدت بها صيرورته

« بوذا » ، والمكان الذى بدأ فيه تأسيس ملكه السماوى ، والبقعة التى يرقد فيها فى تلك اللحظة وسيموت فيها . ومازالت تعتبر هذه الأماكن أماكن مقدسة حتى اليوم .

ولقد ائتمن المعلم بصورة خاصة ، صديقه الوفى وتلميذه أناندا ، الذى يعد بمثابة قديس يوحنا البوذية St. John of Buddhism ائتمنه على أفكاره الأخيرة ، التى سجلت فى النهاية . وإذا لم يكن المتنور قد خلف أية رسالة أطول من تلك الرسالة التى اقتبسنا منها ، فلقد خلف سلسلة من التعاليم المتنوعة ، إذ أصدر بهذه المناسبة على سبيل المثال تحذيراً لأناندا من النسوة اللاتى أشار إليهن :

– « كيف يكون سلوكنا نحن أنفسنا ، يامولاى إزاء الجنس النسائى ؟ » .
« كما لو أننا لانراهن ياأناندا » .
– « ولكن لو أننا رأينا هن ماذا علينا أن نفعله ؟ »
« لانخاطبهن يا أناندا » .
– « وإذا كان لابد من مخاطبتهن يامولاى ماذا علينا أن نفعله ؟ » .
« أن نكون حذرين تمام الحذر يا أناندا(١٣) » .

وبالإضافة إلى هذا التحذير الصارم أصدر البوذا تعليمات معينة عن إدارة الطائفة فى المستقبل يمكن أن نلاحظ فيها مبادئ التفرقة والتمييز : مظاهر لم يكن لها وجود أصلا فى الطائفة البوذية عبّرت ليس فقط عن صورة من صور المعارضة لمذهب البراهمانية ، بل عن احتجاج ضمنى للمذهب بوجه عام . وبينما كانت العادة المتبعة خلال فترة حياة « البوذا » هى أن ينادى الإخوة بعضهم بعضاً بعبارة آفوس Avus أو صديق ، أعرب المعلم عن رغبته فى وجوب التخلص من مثل هذه الشكليات من ذلك الحين . وبينما كان الإخوة الكبار مستمرين فى مخاطبة من يصغرونهم وفقاً للأسلوب القديم أو بأسمائهم ، صار من الواجب أن يُحيَّون هم أنفسهم بكلمة « سيد » بل حتى بعبارة « السيد الجليل » ومن ناحية أخرى عبَّر « البوذا » ، الذى كان ينظر إلى مبدئه على احتمال أن يظل ثابتا فقط حتى مجىء « بوذا » آخر ، وفقاً للأسلوب الجينى الصحيح عبَّر عن رغبته فى ألا يحير تلاميذه الأخيرين بقواعد ووصايا من المحتمل أن تصبح قديمة . وأخيراً أعاد توطيد مذهبه عند تلاميذه ، الذين أعلنهم فرداً

(١٣) من الطريف أن نذكر أنه فى علم الأسطورة البوذية ، تصوَّر إلهة الحب أو الرغبة راتى Rati على أنها ابنة « مارا Mara » نفسه .

وجماعة – حتى من هم أكثر تخلفاً – أنهم قد بلغوا تلك المرحلة من التنور التى لم يعد فيها من الضرورى معاناة الولادة مرة ثانية .

وعندما أدرك أناندا أن سيده كان بالفعل على وشك أن يموت توسل إليه أن يطيل بقاءه الدنيوى لفترة أطول ، بل لولدهرٍ مادام ذلك فى مقدوره ، فأنبه « البوذا » تأنيباً يكاد يكون عنيفاً فى التعبير عما هو مخالف لما رسمته الإرادة الإلهية . وأخيراً اقتنع أناندا بالإذعان للرحيل البدنى لمعلمه ، ولقد جادله « البوذا » قائلا : « ألم أذكر لك من قبل أن نفس طبيعة كافة الأشياء القريبة منا والعزيزة علينا ، هى أننا يجب أن نعزل أنفسنا عنها ، نتركها ، نفصل أنفسنا عنها ؟ إذن كيف يمكن أن يكون هذا مستطاعاً يا أناندا – فى حين أن أى شىء كيفما كانت ولادته وكيفما جاء إلى الوجود ونظَّم أمره يحوى داخل نفسه الضرورة الفطرية للتحلل – كيف يمكن أن يكون هذا مستطاعاً إذن أن مثل هذا الكائن يجب أن يتحلل ؟ » . وبعد قوله هذا ، أمر أناندا بأن يجمع كل الإخوان وألقى عليهم حديثاً مختصراً ، وكان هذا الحديث آخر حديث على هام ، أجمل فيه الأفكار الأساسية لمبدئه وختمه بكلمات صارت مشهورة : « كل الأشياء المركبة لابد أن تهرم . حقق خلاصك بالجد والاجتهاد »[١٤] .

وبعد أن قطع فى النهاية اتصاله بالجنس البشرى ، غرق « البوذا » فى حالة التملك الصوفى مارا على التوالى خلال أربع مراحل من مراحل جهاناز Jhanas التى تبلغ ذروتها بالوصول إلى الرؤيا الموحدة . وبدخول هذه المراحل ، طرحت النفس تدريجياً ، كما كان واقع الأمر ، صورها السطحية للوعى وبلغت حالة « الطرب المثالى » وهى المرحلة الأخيرة من الطريق ذى الثمانى شعب ، التملك فى آن واحد لكل شىء وللاشىء النيرفانا . ومن ثم فإن « البوذيساتفا » بعد أن حجب نفســه عن السماء لينقذ البشرية من طغيان الأثرة والرغبة ، قصد بنهاية رسالته العودة إلى خير البراهمانيين : أما « الحياة » الختامية التى احتجزتها له « الكارما » التى تخصه ، فقد أخذت طريقها .

وتمشياً مع التعليمات التى تلقاها أناندا ، وكدليل على الاحترام الذى كان يكنّه الناس له أقيمت « للبوذا » جنازة جديرة بأعظم نبيل أو حاكم . وقد قسم رماده (لأن جسده قد أحرق) بين أفراد أسرته ورجال معينين من ذوى النفوذ ممن أقروا رسالته . وقد اكتشف قبر فى

---

(١٤) قارن ذلك بالكلمات التى تفوه بها الطبيب النفسانى فى مسرحية ت.س. اليوت T.S-Eliot « حفل كوكتيل Cocktail Party » . الفصل الثانى .

نهاية القرن الماضى ، مكتوب عليه فيما له صلة بهذا الأمر ، أنه يحوى «رفات بوذا المجيد من قبيلة شاكيا» والمعتقد أنه هو القبر الذى شيدته أسرته تحت نصب تذكارى مازال قائماً .

مبدأ الكارما Karma :

فى وقت من الأوقات كان أسلوب العصر هو التشكيك فى وجود زعماء دينيين عظماء أمثال زاردشت والبوذا والمسيح . ولاشك أن التاريخ ربما صار أقل حيرة لو تقبلنا وجهة النظر هذه ، بيد أن كل الأدلة توحى بأن مثل هؤلاء الناس كان لهم وجود بالفعل ، وأن ماهو صعب تفسيره ليست حقيقتهم التاريخية بل كيف أن تعاليمهم فى تعارضها ، كماهو الواقع ، لغرائز أساسية معينة للجنس البشرى ، كان لها مثل هذا التأثير الطويل الأمد على العقل الإنسانى .

ومن الصعب أن تتفهم العقلية الغربية فكر «جوتاما بوذا» ، ويتضح ذلك فى أمرين : إذ إن جانبا من هذا الفكر يكاد يكون بعيداً البعد كله عن إدراك الغرب له ، فى حين أن ذلك الجانب الذى يمكن أن يفهمه المفكرون الغربيون لايزال يُساء فهمه . وفى الوقت الذى كان يرتاب فيه البوذا فى «الميتافيزيقيات» بالقدر الذى كان يرتاب «سقراط» فيها ، وكان يعارض التأمل عديم الجدوى فى أصل العالم ، كان ينادى بوجهات نظر مؤكدة عن علم نظام الكون ، أو الطريقة التى كانت الحياة فى الكون تعبر بها عن نفسها . وكانت هذه النظرية البوذية عن النظام الكونى Cosmos تختلف قليلا فى أساسها عن تلك التى كان مسلماً بها فى الهند منذ أقدم العصور ، وهذه نقطة سبق أن وجهنا إليها الأنظار . ولم يشر البوذا ، ولامرة واحدة ، أو فى الواقع لم بشر أى «جينى» آخر ، إلى نشأة أو صاحب هذه النظرية السلوكية غير العادية ، وهى نظرية أكثر شمولا من أية نظرية سبق وضعها . لقد تقبلها فحسب كحقيقة لاتقبل أى نقاش[١٥] .

وقد يبدو أنه ليس هناك من علة لماذا لاينبغى للتجسد أو التناسخ أن يستصوب نفسه كعقيدة للعقلية الغربية . ومن بين النظريات غير المبرهن عليها أو التى لايمكن البرهنة عليها ، نظريات أخلاقية ، فهى لاتعد أكثرها براعة فحسب ، بل أكثرها منطقية . والرجل الغربى «العملى» مع إحساسه القوى بالثواب والعقاب قد يتقبل الفكرة بروح أكثر حماسة من

---

(١٥) ولا أن يثار جدل حولها ، وقد وضعها البوذا ضمن أربعة «أمور مسلم بها Kammavipako in Pali :

الشرق ، مع إحساسه القوى بالقدرية[١٦] Fatality (وهو مبدأ مختلف جدًّا) لِمَ لم يفعل ذلك ، اللهم إلا فى حالات فردية جدًّا[١٧] ؟ إن رأى الكاتب العصرى هو أن الفكرة لم تجد من ينادى بها قط وبمعنى آخر ، يبدو معقولا الاعتقاد بأن مبدأ تناسخ الأرواح كان مدركاً ونادى به «جينا» فى الشرق مبكراً عن أى من المبادئ التى وصلتنا تسجيلاتها ، وربما كان مبكراً حتى عن «الآلهة» أنفسهم ، لأن الأخيرين ، كما كان البوذا حريصاً على أن يؤكد ، كانوا خاضعين تماماً لقانونه بقدر خضوع الناس والحيوانات له[١٨] . إذن ، فقد يستمد مبدأ ما جانباً كبيراً من بواعثه ، ويحقق الكثير من تأثيره ، من حقيقة أنه يتمشى تمشيًّا مضادًّا بصورة مباشرة مع الغرائز المزاجية للحاضرين . وفكرة القدرية التى تمثل أقصى انتقال من وجهة النظر العادلة والمنطقية للكون ، تحتاج لأن تصححها نظرية مغايرة و«الجينا» أو النبى يسد للناس مابها من نقص ، ومن ثم فإن العقيدة الشرقية التى حققت أقل نجاح فى الشرق هى المسيحية ، بعدم اكتراثها بنظرية التناسخ[١٩] ، وقد يكون نجاحها العظيم فى الغرب مرده إلى الاصرار على مظاهر سلوكية كانت ولا تزال فى حاجة إلى إعادة توكيد مستمر من أجل حضارة عرضة دائماً لنجاح مادى .

وإذا كان البوذا فى رضاه عن أنه قد ولد فى الدنيا ، كان يؤجل عن طيب خاطر خلاصه الشخصى ، فلا يتضمن هذا أنه كان شخصاً كاملا كيسوع المسيح ، الذى ترك السماء بقصد أن يفتدى البشرية[٢٠]. لقد تحمل البوذا شخصياً كل عمليات التناسخ ، وقد استغرق هذا زمناً . إن ما جعل البوذا «متنورا» عن كلّ من سبقوه من دعاة المذاهب هو أنه كان فى إمكانه أن يتذكر كل أوجه الحياة التى مر بها إذ أن كل ما كان يعرفه الإنسان غير المتنور هو أن وجوده

(١٦) كانت القدرية الشرقية تخفى أحياناً المظهر الأخلاقى للكارما ، قارن ذلك بما جاء فى فيشنو بورانا Vishnu Purana : «لا المولد ولا التعلم ولا السلوك ولا الشخصية ولا أى علاقة بين العلاقات تفيد الإنسان فى هذه الحياة ، وتأثيرات الكارما على شخص من الأشخاص والندم الذى أحس به فى زمن سابق ، تثمر مثلما تثمر شجرة من زمن مختلف فى زمن تال لها» . هذا صحيح ولكن الجهود فى الوجود المقبل ينبغى احتمالاً أن تثمر أيضاً بدورها ؛ وإلا لما تناقص عبء الكارما أبدا .

(١٧) هذا الرأى يبدو غامضاً إلى حد ما عند أفلاطون .

(١٨) كان شانكارا Shankara ينادى بوجهة نظر مماثلة ، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

(١٩) لم تشر الديانات السماوية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام إلى التناسخ ، على الإطلاق وإنما أوضحت أن هناك بعثاً وحساباً يوم القيامة (المترجم) .

(٢٠) هذا زيف وبعد عن الواقع إذ إن المسيح ليس ابنا لله بل بشر كسائر البشر ورسول مثل كافة الرسل ، ولم يقتل فداء للبشرية بل رفعه الله إليه بعد موته (المترجم) .

الراهن ، أياً كانت طبيعته هو نتيجة تدبيره الشخصى فى جملة وجوده السابق ، ولكن سلوكه وقت ذاك وهناك إما إصلاح لميزان قد انقلب بصورة خطيرة أو لايزال يقلقه . وبالرغم من قصر مدة المسعى أو الكسل فهى قد تسبب تغييرات من نوع بالغ الأهمية ، فالرجل الصالح قد « يتخلص » بنجاح مما له من « كارما » للتسليم بأن مايحدث بعد ذلك من تجسيد على الأرض غير ضرورى [٢١] ، فى حين أن الشخص الطالح تماماً قد يكون محظوظاً لأن يسمح له بالبقاء داخل حدود العالم الطبيعى ، ولكن فقط كحشرة خبيثة أو كأحد الزواحف ، لأن عجلة الوجود قد تفلت إما صاعدة إلى سماء من السموات المختلفة ، أو يكون مآلها إلى جحيم من الـ ١٣٦ جحيماً التى يتحدث عنها علم اللاهوت البوذى المتأخر . والخير المطلق والشر المطلق ، وكلاهما نادر ، وجزاؤهما الخلاص المطلق أو الهلاك المطلق .

إنه لأمر مألوف القول بأن البوذية ينعشها نفور شديد من الحياة لايمحى ولايزول . وهناك عبارات معينة من عبارات « البوذا » وبخاصة فيما جاء بـ « موعظة النار » قد تؤيد بسهولة هذا الرأى . ومما يساعد على التبصر أن الكهنة البوذيين قد تعلموا أن يحفظوا أمام عقولهم صوراً مثل الهيكل العظمى أو جثة فى عملية التحلل : إذ يمثل هذه الطريقة سيقل التفكير فيما له صلة بالمتع الجسدية ، وينتهى الأمر بالتخلص منه نهائياً . وبرغم ذلك ، فإن الواجبات الخاصة المحددة للكهنة والمتسولين لم تكن بالضرورة إجبارية بالنسبة للعلمانيين العاديين . وهناك بعض المتصوفين المسيحيين ، أمثال « سنت كاثرين السيانى St. Catherine of Siena » اعتادوا أن يشتركوا فى صور من « النظام الذاتى » الذى قد يبعث الوصف التجريدى له إلى غثيان النفس ، إذ أن هناك طريقة فعالة جداً « لتجريد المرء من حبه للكائنات المخلوقة » (ولنقتبس عبارة « القديس يوحنا الصليبى St. John of the Cross ») وهى التركيز على تلك المظاهر التى تتكشف عندها الحياة على أنها ذروة القبح والحقارة . ومع ذلك ، فلقد كانت المسيحية تفخر دائماً بنفسها بتحررها مما يشين ومن المرض [٢٢] . وبالمثل ، فإن أعظم جانب جذاب فى البوذية ربما كان موقفها من الجمال الطبيعى . وإذا كان الجسم البشرى يثير النفور فلقد كانت الطبيعة فى مجموعها جميلة ولذلك قد شيدت المعابد البوذية الأولى فى أماكن ذات جمال شعرى . لم تكن تبعد كثيراً ولا هى شديدة القرب من المدينة ، كانت بعيدة عن الضوضاء

(٢١) كان هذا هو الهدف الذى أقره اليوجيون Yogi : انظر الفصل السادس فى هذا الكتاب .

(٢٢) الديانات السماوية الثلاث ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، فى ذلك سواء (المترجم) .

وعن أماكن الراحة المزدحمة وملائمة للتأمل والتبصر الانفرادى . فى مثل هذه المجتمعات كان الإخوة يعيشون « فى سعادة تامة ، بلا أعداء فى عالم ، على العكس من ذلك ، عدائى » فقد أعلنوا : أن فى « البهجة انتعاشا » .

وبدراسة البوذية دراسة متعمقة مستفيضة ، يصبح المرء على علم بأن مايتخلص منه ليس « الجسد » (كما هى الحال ، مثلا ، مع البيوريتانية المسيحية) بل الفردية individuality التى يعد الجسد رمزاً واضحاً لها . ومن ثم . فإن الاجتذاب إلى أن « تكون وحدك مع الطبيعة » كان أيضاً فى أن تكون ، كما جاء فى عبارة « شيللى Shelley » . « على وفاق مع الطبيعةat one with nature » ، ولم يعد الفرد فى ضياع ولا منعزلا . يقول الكاهن : « فى غابة خضراء ، فى كهف طلق الهواء بين الجبال ، أود أن يسبح جسدى ، وأود أن أسير وحدى فى الغابات الشاسعة الجميلة . وفى السماء عندما تدق سحب العواصف صنوجها ، وعندما تملأ سيول المطر طريق الهواء ، وعندما ينسى الكاهن نفسه وهو فى غار فى الجبل ، ويشغل بالتأمل ، ليس هناك أعظم بهجة من ذلك . وعلى شاطئ النهر المغطى بالأزهار يجلس فى تأمل مذهل وبكل تأكيد ليس هناك من بهجة أعظم من ذلك »

والبهجة والنشوة الروحية ، وهما بعيدتان عن أن تستبعدا من حياة كل من الكهنة ومن العلمانيين ، يُتطلع إليهما على أنهما دلالة على مزاج روحى ممتاز . ولقد أغرى مثل هذا المزاج السائد باتخاذ موقف دقيق تجاه كافة المخلوقات . وكان هجوم « البوذا » على نظام الطقوس نتيجة لهذا الموقف . لقد كان الإحسان أسمى من طقوس التضحية « هناك صورة من صور التضحية أسهل من اللبن والزيت والعسل ، إنها الإحسان فبدلا من التضحية بالحيوانات ، لندعها حرة طليقة ! دعها تسعى وراء الكلأ والماء والنسمات العليلة » ولاعجب إذا كان البوذيون من بين أول من شيدوا مستشفيات للحيوانات . وكما ورد فى الـ « ذاماّبادا » : « لو أن شخصاً طوال مائة سنة يضحى شهراً فى إثر شهر بألفٍ ، ولو أنه للحظة واحدة فقط أكرم شخصاً نشأت روحه فى معرفة حقه ، لكان ذلك الكرم أفضل من تضحية داوم عليها مائة سنة » . وهكذا كان التناقض المزدوج لتعاليم « جوتاما » كانت الحياة جميلة وقبيحة معاً : من واجب المرء أن يستأصل من نفسه الرغبة فى الاستمرار فى الوجود ، ولكنه قد يبجل إلى درجة رقة الإحساس ، حياة الأشياء الطبيعية يجب أن يسعى لضمان توقف الميلاد ، ولكن فى الوقت نفسه ، يجب أن يتغاضى عن استمرار الولادة للمرة الثانية حتى تحل « كارما » الإنسانية

obeikandi.com

والحياة ، برغم ما فيها من شقاء ، يجب أن تستمر حتى تتطهر من الخطيئة والأثرة ، ومزاج الكاهن يجب أن يكون نوعاً من فعل الخير الرواقى . وطبقاً لتعاليم المعلم ، فإنه إذا ما أوذى كاهن على يد أعدائه لوجب عليه أن يقول لنفسه : «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، فهم على الأقل لم يضربونى » وإذا ما ضربوه لوجب عليه أن يقول لنفسه «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، فهم على الأقل لم يقتلونى » ، وفى النهاية لو أنهم أعدوا عدتهم ليقتلوه ، لوجب عليه أن يقول : «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، لأن كل مايفعلونه هو أنهم أنقذونى من هذه الحياة الزائلة بدون تعريض خلاصى للخطر»

لقد وصف عدد من العلماء الادعاء بأن الحياة شر غريزى على أنه فساد أخير لتعاليم البوذا[٢٣] وباستثناء عدد من الصور المستعملة ، فإن تعاليم البوذا لاتوحى بطبيعة لايسيطر عليها بصورة وبيلة أشنع مظاهر الوجود الطبيعى . وأياً كان مزاج البوذا الشخصى ، فلقد تخلص إلى أبعد حد من المزاج الهستيرى والعصبى ، إذ لعل «مهافيرا » كما يمكن استنتاجه ، كان على العكس من ذلك . وفضلا عن هذا ، فإن فلسفةً ما لايمكن أن يغض النظر عنها ، باعتبار أنها سلبية تماماً وميئوس منها تماماً ، لو أنها تقدم ، حتى لوكان ذلك زائلا وبثمن مذهل ، بصيصاً من الأمل : ولكن «البوذا» منح القدسية Arahatship هنا والآن لمن هم على استعداد لأن يُخمدوا نار الرغبة والعاطفة فى قلوبهم .

العربتان : آشوكا Ashoka :

بنمو المنهج البوذى وبتطور كنيسة مؤلفة من مجموعة كهنة لم يُقصد بها على الإطلاق أن تشكِّل هيئة كهنوتية صارت أفكار بوذا الرقيقة الحكيمة قوية فى صورة وصايا ، حتى إنه فى الوقت المناسب ، كشف المبدأ البسيط شقاقا ، بعيداً عن الأرض التى بشر فيها « بوذا » لأول مرة ، استمر حتى اليوم وكان هذا الشقاق بين ما يسمى «بوذية هينا يانا Hinayana Buddhism » أو «العربة الصغيرة» و «بوذية ماهايانا Mahayana Buddhism » أو «العربة الكبيرة» ، وهما عبارتان لاتبرهنان فى ذاتهما على تنور تام . أما عن أى من هاتين الصورتين للبوذية تعد أكثر اقتراباً مما بشر به «الشخص المتنور» فمن الصعب

(٢٣) قارن ذلك بما جاء فى كتاب . م . هيريانا M. Hiriyanna: أسس الفلسفة الهندية The Essentials of Indian Philosophy ص ٧٥ .

obeikandi.com

تحديده عند هذه المدة الزمنية الغارقة فى القدم ؛ ولكنهما تختلفان كل منهما عن الآخر اختلافا عميقا ، نظراً لأنهما تختلفان عن نوع آخر من البوذية يعرف باسم «بوذية زين Zen Buddhism» التى ازدهرت بصورة خاصة فى اليابان . وتاريخ هذه المدارس المختلفة مفيد تعليميًّا ، ولكن على شاكلة كافة تواريخ الكفاح الطائفى ، يمكن أن يكون باعثاً على الاكتئاب .

ولم يكن للبوذية خونة ، وإن كان لها مَنْ شكك فيها وهو الحوارى «سوباذادا Subhadda » ، إذ عندما تلقى نبأ وفاة «المبارك» ، كان متوقعاً أن يقول : «سيكون فى استطاعتنا الآن أن نفعل مانشاء ، وما لانرغب فيه ومالن نفعله» هذا خير تلخيص لما حدث . وحتى قبل انشقاق «العربة الصغيرة» و «العربة الكبيرة» الذى كان له أثره فى الانقسام الجغرافى العريض للبوذية ، ظهرت مالا يقل عن ثمانى عشرة طائفة مختلفة . ولقد كان من المحتمل بالنسبة لعملية الانشقاق ، وهو أمر محتوم إلى حد ما بالنسبة لكل عقيدة ، أن تنتهى بفوضى شاملة ، لو لم يتحول إلى العقيدة البوذية حاكم من أعظم الحكام فى التاريخ القديم وهو «آشوكافاردانا Ashokavardhana» أو «آشوكا Ashoka » ويبدو أنه لايمكن لأية ديانة أن تعيش دون أن يكون لها بطلها المهاب . وكان موقف آشوكا ، الذى بدأ يحكم الهند بأسرها (فيما عدا أقاصى الجنوب) فى سنة ٢٧٣ ق . م . ، من البوذا كموقف قسطنطين Constantine من المسيحية . ومالم تكن ظنوننا خاطئة تماماً ، فلقد كان آشوكا يمثل واحداً من الحكام القلائل فى التاريخ الدينى لم يتحول حكمهم المطلق إلى فساد مطلق . وقد تميز آشوكا فى بداية حكمه بقسوة تقليدية ، ويبدو أنه قد مرَّ فى منتصف حياته بخبرة نفور من الحياة التى تتعاقب فيها الأبهة والمذابح ، والتى كان لأغراض تتعلق بالهيبة ، مضطراً لأن يحياها ، ويقول البعض إن الفضل فى هذا يرجع لبطولة كاهن بوذى كان قد زج به فى جحيم سجنه ، ويقول البعض إن ذلك كان فى أعقاب أنباء انتصار من انتصاراته الأكثر دموية ، ذلك النصر الذى أحرزه على الكالينجا The Kalinga الذى قُتل فيه عدة مئات الألوف وشُوِّهوا أو صاروا بلا مأوى . وكل مانعرفه هو أنه قرر فجأة أن يصبح راهباً بوذياً أو يوباساكا Upasaka، وأنه كرس بقية حياته (وربما أصبح كاهناً بعد ذلك) لحكم شعبه وفقا للمبادىء البوذية .

إلى أى مدى نجح آشوكا فى تحويل البوذية إلى دين رسمى للدولة ، فهذا مالانستطيع أن

نقرره : ولاشك أنه قطع شوطاً طويلاً فى أن يغرس فى شعبه التعاليم الأخلاقية . وجهودنا العصرية فى الدعاية السياسية لايمكن أن تبارى تلك التى استخدمها آشوكا ، كما أنه لايحتمل أن تبقى لمثل هذا الأمد الطويل . ولقد أقام فى نقط اختيرت اختياراً دقيقاً فى أرجاء مملكته ، أقام أعمدة صخرية ضخمة نقش عليها ، وعادة ماكان النقش بلهجة الإقليم ، أساسيات الأخلاق البوذية . ولقد حفرت نقوش مماثلة على أوجه صخرية كثيرة . وكلا النقوش الصخرية وعدد من الأعمدة ربما لاتزال قائمة . وكما هو متوقع ، لم تتناول هذه الكتابات الكثير من الأمور اللاهوتية المجردة (وغريب جداً أنها لم تشر ولو مرة واحدة إلى البوذا بالاسم) بقدر ما تناولته من الأمور القومية أو الآداب الاجتماعية . وفى مجتمع يتهدده خطر الانقسام إلى طوائف غير مسالمة ، تنادى هذه الكتابات جاهدة بتسامح دينى . ويحوى الفرمان الصخرى Rock Edict رقم ١٢ ، على سبيل المثال ، الفقرة الطريفة التالية : «يجب ألا يقدم المرء تبجيله لطائفته ، أو يحط من قدر طائفة أخرى ، بدون سبب . يجب أن يكون التحقير لأسباب معينة فقط ، لأن طوائف الناس الآخرين كلها تستحق التبجيل لسبب أو لآخر . وبسلوك مثل هذا المسلك ، يمجد المرء من طائفته وفى الوقت نفسه يؤدى خدمة لطوائف الناس الآخرين .. وباتباع سلوك مضاد يضر المرء بطائفته هو نفسه ولايؤدى خدمة لطوائف الناس الآخرين ... والوفاق يستحق التقدير Concord is Meritorious». هذه عبارة شخص ، فى الوقت الذى يدرك فيه عنف العواطف الدينية إدراكاً تاماً يمنعه من أن يكون له باع فى الاضطهاد ، يدرك مع ذلك جسامة مسئوليات السماح بالحرية الدينية .

وقد يوحى فرمان موجز إلى حد ما مثل الفرمان السابق بأن آشوكا ، برغم تسامحه الدينى ، كان ينقصه إيمان شخصى . وقد يكون الافتراض باطلا . وعلى شاكلة أخناتون ، يبدو أن آشوكا كان مهتدياً ورعاً ومخلصاً . وكإدارى ، كان أكثر قدرة من المتعبد المثالى للإله آتون . لقد شيَّد معابد بالألوف كما بدأ بإنشاء مستشفيات بيطرية ، وعقد محفلا بوذياً ضخماً وأصلح الكنيسة . وبعد أن صيّر بلاده إنجيلية تماماً ، من أقصاها إلى أقصاها ، بدأ بتنظيم البعثات الأجنبية ، ولقد جاب كهنة آشوكا جل العالم المعروف وقتذاك بالغين أقصى مابلغوه : اليونان فى الغرب ، وبعد وفاته مباشرة حملوا مشعل التنور إلى التبت والصين واليابان حيث تأصلت هناك تأصلا دائماً .

ولم تكن نقوش آشوكا بوجه عام مقصوداً بها فحسب الحض على الفضيلة ؛ إذ كثيراً ماكانت تتألف من تقارير عن النتائج التى أمكن تحقيقها. وحتى لوسلمنا بالمبالغة الرسمية ، فإن هذه النتائج يبدو أنها جديرة بالملاحظة ، إذ أن الموظفين لم يعملوا بصبر فحسب ، بل أظهر الناس صفات من الفضائل يجب ألا تترك دون أن تحظى بما تستحقه من تقدير . أما الفرمان الصخرى رقم (٥) فلابد وأنه قد صدر فى لحظة من الهدوء والرخاء الفريدين : «والآن فإنه من دواعى الورع الذى يمارسه جلالة الملك المقدس الكريم ، قد أصبحت ترديدات طبول الحرب هى ترديدات القانون ... ومثلما لم يحدث قبل ذلك بعدة سنوات ، اليوم ... صار المزيد فى الامتناع عن ذبح المخلوقات الحية والامتناع عن قتل الكائنات الحية ومعاملة الأقارب بالحسنى سلوكاً مستحباً عند البراهمانيين ، يلقى أذنا مصغية عند الأب والأم ، يلقى أذنا مصغية عند الكبار» باختصار ، هناك شىء يعالج التنظيم العام والذوق العام .

ولقد كانت السنوات الأخيرة من حكم آشوكا (وقد دام حكمه أربعين سنة) سنوات غموض واضطراب كالسنوات الأخيرة من حكم أخناتون.والفشل والتخلى عن الدين هناك لابد أنهما كانا سائدين فى كل الأزمنة ، ومن المحتمل أن يكون آشوكا قد صمم تصميماً تاماً على المواءمة الخارجية ، ومن ثم خلط «السلوك المستحب» بالاستقامة الأخلاقية الداخلية . وفضلا عن هذا ، فإن الحفاظ على الفضيلة العامة فى مستوى أسمى ، بشكل واضح ، عن ذلك المستوى السائد فى أى مجتمع عادى لابد وأنه قد تطلب قدراً كبيراً من التنقيب والرقابة يثيران السخط ، ومهما يكن أبسط قدر من المجتمع لابد وقد تهيأ للصبر والاحتمال ، فلقد كانت هناك تأثيرات قوية تعمل ضد الفضيلة التى وضع لها الملك تعليمات . وأهم هذه المؤثرات مؤثرات البراهمانيين الذين كانوا ، على شاكلة كهنة آمون ، ينتهزون الفرصة لإعادة توكيد نفوذهم ، وليستأنفوا بصورة غير مقصودة تلك العادات المحظورة مثل تقديم أضحيات الحيوانات . وفى النهاية ، يبدو أن آشوكا قد عُزل ، وخلفه من بعده حفيده ، وبالرغم من أنه قد أختفى من الحياة العامة ، إلا أنه ، على شاكلة الإمبراطور شارل الخامس كرّس سنواته الأخيرة لممارسات دينية .

تأليه البوذا :

برغم أنه منهجه قد هجر ، فلقد استمرت الديانة البوذية ، بعد أن لحقها التعديل إلى حد ما ، فى اكتساب أشياع بسرعة لامثيل لها وبمقياس لاشك أنه أعظم مما كان يتوقعه مؤسسها ، لأنه مثلما أن هناك بوذيين «أسطوريين» الأمير الشاب اللامع والرسول المتواضع رسول الرقة والصبر، فكذلك كان هناك مثلان أعليان بوذيان يتصارعان ، ذلك الذى كان يهدى العالم بأسره إلى القدسية Arahatship وذلك الذى ينادى بوضع إنجيل ثابتٍ ،ولانقول مرناً ، يكفى لخدمة الإنسانية حتى قدوم البوذا التالى . أما عن أن «جوتاما» يبدو أنه كان يعتبر نظام الطائفة مظهراً دائماً للمجتمع ، بالرغم من أنه ربما هو شخصياً قد سخر من تقاليدها ، قد أوحت به حقيقة أن هذا البوذا المنتظر يجب أن يكون من طائفة البراهمانية ، وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى. وبمضى الزمن ، اتخذ التقسيم بين «بوذية المهايانا» و«بوذية الهينايانا» اتخذ طابعاً إقليمياً : فالهينايانا ، وهى عقيدة كانت تسعى للحفاظ على بساطة تعاليم البوذا ، ازدهرت لبعض الوقت فى جنوب الهند بما فى ذلك سيلان ، فى حين أن المهايانا ، وهى أكثر حكمة ، كانت سائدة فى الشمال وانتشرت من هناك عن طريق الصين والتبت ومنغوليا إلى اليابان(٢٤) . وكعقيدة بسيطة ، كانت الهينايانا تبجل البوذا بوصفه معلماً عظيماً وقديسا ، وقد استمرت مجتمعات المعابد فى تنظيمها متبعة الخطوط التى أوضحها المعلم ، ومن ثم فلعل المعابد فى سيلان حتى اليوم تحافظ أفضل من أى مكان آخر ، على خصائص المجتمعات البوذية الأصلية (٢٥) . وقد مجدت عقيدة أو عقائد المهايانا من ناحية أخرى ، مجدت البوذا لدرجة أنه صار فى النهاية يُنظر إليه كإله ، وكان نتيجة ذلك أن النبى الملحد كان مسئولا ، فى حينه ، عن نظام دقيق لعلم اللاهوت والميتافيزيقيات . وفى مؤتمر كنسى كبير عقده حاكم كوشان العظيم المدعو كانيشكا Kanishka (نحو ١٢٠ ب . م) والذى حكم إمبراطورية هندية وأسيوية ضخمة من عاصمته فى كابل ، تأسست عقيدة المهايانا مع دقة بالغة وثراء فيما كتب عنها . ومن بين إنجازات المبعوثين : تأليف ثلثمائة ألف سوتراSutras أو مقالات لاهوتية تكاد تتناول كل

---

(٢٣) التقسيم تقريبى ، ولقد انتشرت المهايانا بالمثل فى : كوريا وفى هاواى أيضاً .

(٢٤) قارن ذلك بمقال عن البوذية Buddhism كتبه د. لافاليه بوسان De la Vallée Poussin (١٩٣٨) فى كتاب : تراث الهند .The Legacy of India

مشكلة ملموسة من المحتمل أن يواجهها المؤمن . لقد شكلت البوذية اليوم عقيدة لكنيسة قائمة ، لها قوتها .

هل وضعت « العربة الكبيرة » فقط لكى تكون وسيلة نافعة للحكومة؟سيكون هناك دائماً مؤرخون من رأيهم أن « تطوير » أو تعديل عقيدة مايمثل مجانبة للبساطة الأصلية والصدق ، وقد خُطط كقاعدة لأغراض سياسية ، أو كان سببه اتجاها زمنيًّا للطبيعة البشرية للقنوط وللسعى إلى الإحساس بالراحة فى العقيدة . ومع ذلك ، فإن مزيداً من الفحص العميق ، فى الوقت الذى يسلم فيه بالفساد والانحطاط ، سيقر أيضاً بتقدم معين ، ولايُرى شىء غير معقول يلازم العمليتين اللتين تحدثان فى وقت واحد : ففى ترابط مع نمو النظام الطقوسى ، عبادة المخلفات الأثرية ، وعلم اللاهوت البالغ التعقيد ، كانت تسير جنباً إلى جنب نظرة أخلاقية أكثر ميلاً إلى الحرية وأكثر تهذيباً . وبدلا من الدعاية لمبدأ أن القديس أو الـ آراهات Arahat وحده دون سواه يمكن أن ينجو ، فتحت «بوذية ماهايانا» طريق الخلاص أمام كل البشر . وأكثر من هذا ، لقد صورت هذا الطريق للخلاص بأسلوب أقل غموضاً وأقل سلبية عما كان مسلماً به . وتوقفت « النيرفانا » عن أن تعنى (لو أنها كانت تعنى أبداً) فناءً مطلقاً ، وصارت موطناً للبركة والسلام ، لا تبلغه عملية التناسخ وهذا التطوير ، برغم ما يصاحبه الكثير من الشعائر الخرافية أو السحرية ، يحمل تشابهاً له دلالته بما حدث فى مصر بعد ثورة أخناتون ، وفى الوقت نفسه بما جمع فى «كتاب الموتى» ولعل أطرف تطوير للماهايانا ، مع ذلك ، هو مبدأ الـ «بوذيساتفاس Bodhisattvas» أعنى مبدأ البوذيين الذين امتنعوا عن دخول « النيرفانا » لكى يعملوا من أجل تأييد التحرر العالمى . ويهدف تبجيل هؤلاء البوذيين المنتظرين ، يهدف أحياناً إلى طمس الاسم « التاريخى » المبجل « للبوذا » وبدلاً من التركيز على بلوغ « النيرفانا » ، كان المؤمن يميل إلى الطموح نحو الوصول إلى حالة من حالتين : إما الولادة للمرة الثانية خلال حياة واحد من البوذيساتفاس أو ، ما هو أكثر طموحاً مع ذلك ، أن يصبح « بوذا » هو نفسه . أما بالنسبة لأحسن وسيلة لتحقيق الهدف الأخير ، فقد اختلف علماء اللاهوت اختلافاً شديداً ، وفى الوقت نفسه كان طبيعيًّا أن يكون من واجب الناسك أن يسعى مبتهلاً طلباً فى معاونة القديسين والآلهة وكافة البوذيين الذين سبق أن عاشوا ومن ثم ، إذا بأفكار «جوتاما» البسيطة وقد أغرقها بمضى الزمن غزو عقيدة وأسطورة . ولا يمكن لأوزيريس ولا الـ « فرافاشيس Fravashis » أن يظلا لمدة طويلة فى الخلفية .

انتشار البوذية :

هناك مظهر واحد من أكثر المظاهر غير العادية فى التاريخ وهو حقيقة أن كثيراً من الديانات العظمى فى العالم – وهناك اتفاق بوجه عام على أنها إحدى عشرة فى عددها – قد ازدهرت بأقل سرعة فى مكان نشأتها الأصلى . وهذا صحيح بصورة خاصة بالنسبة للعقيدة البوذية . واليوم ، نجد أن عدد البوذيين المحترفين فى الهند ، عدد لايعتد به (٢٦) ما السبب فى أن مثل هذه الديانة القومية قد فشلت فى تثبيت جذورها فى البلد الذى احتضنها أصلا بمثل هذه الحرارة ؟ يكمن الجواب فى حقيقة غالباً ما تُنكر أو غالبا ما يقلَّل من تقديرها . فالبوذية لم تطرد الديانة التى سبقتها وإنما عن طريق تراخيها وتسامحها هى ذاتها ، بقيت العقيدة الهندوسية واستطاعت أخيراً أن تحجب المبدأ الأحدث والأكثر إحكاما ، لأنه بقدر ما جمعت البوذية من خرافات وطورت ما وضح من علم اللاهوت بل ما غمض ، اقتربت بذلك من أن تكون عقيدة شعبية كالهندوسية التى تتمتع دائماً بشعبيتها كعقيدة ، بالرغم من موهبتها الطبيعية العقلية ، حتى صار البوذا نفسه فى النهاية يعد ضمن آلهة البانثيون الهندوسى . وثانيا ، نظراً لريبة البوذا فى التضحية وفى الطقوس وفى الاحتفالات الدينية ، باشر السانغا Sangha أو الإخوان البوذيون ، القليل إن وجد ، من الواجبات التى كانت ملقاة بطبيعة الحال على كاهل الكهنة : وبصورة خاصة إقامة الحفلات التى لها علاقة بالميلاد والزواج والموت وإنجاز كثير من المهام الدينية والقومية الأخرى . ولقد استمرت هذه الوظائف يزاولها البراهمانيون ، كإجراء عادى ؛ وبدون هذه الطائفة التى تضم أشخاصاً محترمين كما تضم أحيانا أشخاصاً فاسقين ، تفقد الحياة الاجتماعية فى « هندوستان » استمرارها . وبالرغم من أن البوذا كان يعارض ضمنا البراهمانيين فإنه يبدو أنه لم يقبل فحسب وضعهم الكهنوتى بل كان يسلم به كمظهر دائم من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولقد ظل البوذا عديم الاكتراث أكثر منه عدوا للكيان الطائفى للمجتمع .

وبرغم أن البراهمانية كانت تباشر مثل هذا النفوذ القوى على المجتمع الهندى ، فلقد تمتع « السانغا » بفترة من الهيبة الضخمة . وفى الواقع ، جاء وقت شهد ما لهذه العقيدة من جذب له مثل هذا التأثير على شباب ماجاذا Magadha (شمال شرق الهند) حتى بدا أن المجتمع

---

(٢٦) نحو ثلاثة ملايين نسمة .

على وشك أن ينقرض نتيجة المغالاة فى العزوف عن الزواج Celibacy. وهناك عامل آخر من عوامل الضعف وهو السلمية التامة للمبدأ البوذى : لأنه فى الوقت الذى قد لا يكون فيه التفاخر بالقوة محطماً بالضرورة لمعتقدات غير قوية ، فإنه غالباً ما يمكنه أن يمارس تأثيراً حيث تكون الدعوة له ومن ثم ، فقد جاء طرد البوذية من الهند نتيجة لوصول أناس تلهمهم عقيدة ذات حماسة عسكرية ، أعنى المسلمين . ولقد رسخ الإسلام أقدامه فى الهند حتى اليوم ، ولو أنه لم ينجح مثلما نجحت البوذية فى إقصاء ذلك التكتل غير العادى للمعتقدات الميتافيزيقية العظيمة ، والأساطير والخرافات والنداءات التى تؤلف العقيدة الهندوسية التاريخية .

وتاريخ البوذية من انقراضها فى الهند حتى الوقت الراهن قد يسترعى أنظار القارئ الغربى على أنه عملية متعبة ومحيرة تكاد تتوقف فيها العقيدة الصحيحة للبوذا عن أن تكون مدركة . ولاشك أن بوذية آسيا ، بما فى ذلك اليابان ، عقيدة توضح قدراً كبيراً من التنوع الداخلى . وفى استعراضنا لتاريخ المسيحية فى الغرب فإنه لاشك أن أى عالم من علماء الشرق سيلاقى انطباعا مماثلا لوجود صراع عنيف ، ونلاحظ تفاوتا واضحا فى العقيدة والممارسة ، وخرافة الطبقات . على أن أنقى بوذية ربما تلك التى توجد فى بورما ، وأقلها نقاء فى اليابان ، ولكن اختبار العقيدة يكون فى النهاية فى حيوات الأفراد . وتتضمن «بوذية زين Zen Buddhism» بعض أجزاء ذات جمال عظيم وبصيرة روحية :

دع غيرى يذمونى ، لتتاح لى فرصة اكتساب موهبة ،
لأنهم هم فى الواقع أصدقائى المخلصون ،
وعندما أُذلّل أو أُهان ، لا عداوة ولامحاباة ،
تثير فى كوامنى قوة الحب والضعة التى تولد مما لم يولد

(من أنشودة التنور ، نظم يوكا ديشى : Yoka Daishi)

ومع ذلك ، فلعل أطرف صورة من صور البوذية المتأخرة هى تلك التى بدأت تترعرع فى التبت من القرن السابع الميلادى . ولما صار الفاتح : «سترونج تسان جامبو Strong-tsan Gampo » (٦٢٩-٥٠٠) سيداً لهذا البلد الذى يصعب دخوله ، أقام عاصمته فى لهاسا Lhasa ، وبحكمة نادرة بدأ يبث فى شعبه المبادئ البوذية بمساعدة المبشرين الذين استدعاهم بصفة خاصة من الهند ، أمثال القديس «بادما سامبهافا

Padma Sambhava» وبسرعة تأصلت العقيدة[٢٧] . ولقد أمسكت شخصيتان مسئولتان قويتان» ، هما : دلاى لاما Dalai Lama (الكاهن الأعظم) وتاشى لاما Tashi Lama، أمسكنا بزمام الأمور فى البلاد وفرضتا فيها حكماً دينيا Theocratic Rule . وحتى اليوم يعتبر أولهما خليفة المعتقد الأول : التجسيد الثانى «للبوذيساتفا» فى حين أنه من المعتقد أن الثانى خليفة المعتقد الثانى : تجسيد Avatar للبوذا . ويفَسِّر علم لاهوت اللاما فى سلسلة ضخمة من الكتب المقدسة . والمعتقد أن المؤمنين يكتسبون موهبة بأداء دقيق للطقوس بما فى ذلك العكوف على الصلاة وما يسمى بـ «أشجار القانون Trees of the Law» وهى قوائم خشبية طويلة مزينة بالأعلام . وبالرغم من هذا المظهر الساحر فإن حكمة اللاما تحوى تعاليم تعيد إلى الأذهان حكمة الصين أو «كتاب الأمثال Book of Proverbs » :

يعلن الشخص الأحمق عن خصائصه ،
أما العاقل فيحتفظ بها سراً فى قرارة نفسه
يطفو القش على سطح الماء ،
ولكن الجوهرة الثمينة الموضوعة عليه تسقط .

أو فى سمو أكثر :

الطريق واحد للجميع ،
والوسيلة للوصول إلى الهدف لابد وأن تختلف باختلاف الحجيج .
إنك لن تجعل أحاسيسك ساحة لعب لعقلك ،
هل لاءمت بين وجودك وألم الإنسانية العظيم ، ياطالب النور؟
لأنك يجب أن تعلم أن الباق لايعرف التغيير والتبديل .

ونحن إذ نكتب ، فإن البلد الذى اشتهر وعرف بحفاظه على نظامه الاجتماعى ونظامه الدينى الكهنوتى خلال فترة تربو على ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، مفتحة أبوابه للتأثير الأجنبى ولمبدأ مغاير ، له نتائج لانستطيع نحن فى الغرب أن نتنبأ بها فى الوقت الراهن .

---

(٢٧) لعلها قد بدأت فى اجتياز التبت أكثر تبكيراً عن ذلك .